الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

إرهاصات التغيير عند مالك بن نبي في رواية "لبيك حج الفقراء"

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر ل.م.د في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالبتين:

- راضية لعزالي
- فاطيمة بوغالم

تحت إشراف الدكتور:

- عبد الرحمن حمداني

السنة الجامعية:

1439هـ/1440هـ-2018م/2019م

إهداء

أهدي ثمرة عملي إلى سندي حبيبتي أمي الغالية،إلى من بنى أحلامه على آمالي وأنار لي سبيل العلم أبي الغالي

إلى زوجي حميد الذي ساندني ماديا و معنويا وشجعني على مواصلة الدراسة وكذلك إلى عائلة زوجي.

وإلى ابني قرة عيني" آدم " وإخوتي (عماد الدين، إيمان، أيمن، مقيم، أمين).

إلى كل من ساندتي معنويا ولو بكلمة طيبة إليكم جميعا أهدي ثمرة عملي

لعزالي راضية

إهداء

بسم الله والحمد لله والشكر لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات الحمد لله الذي بتوفيقه وتسهيل منه جل علاه أكملت مسيرتي العلمية لتفتح أمامي أفاق حياة أخرى وهي الحياة المهنية بإذن الله أهدي تخرجي ونجاحي إلى:

من تجرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة حب إلى من كلت أنامله ليقدم لنا لحظة سعادة إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم إلى القلب (الكبير أبي العزيز).

إلى من أرضعتني الحب والحنان إلى رمز الحب وبسلم الشفاء إلى القلب الناصع بالبياض (والدتي العزيزة)

إلى القلوب الطاهرة إخوتي (حميد– غنية و رفيف)

إلى كل من شجعني في رحلتي إلى التميز والنجاح، إلى كل من قال لي لا فكان سببا في تحفيزي إلى الروح التي سكنت روحي (زوجي خليفة) فاحفظه يا رب لي من كل سوء وبارك لي فيه وارزقه الحلال لأنه زوجي الغالي ورفيق حياتي .

أهدي تخرجي لأساتذتي من الابتدائية إلى الجامعة وبالأخص الأستاذ الأب حمداني الذي تشرفنا بقبوله الإشراف والسهر معنا على إنجاز هذه المذكرة وعلى دعمه لنا وتوجيهاته القيمة.

بوغالم فاطيمة

شكر وعرفان

الحمد لله الذي أعاننا على كتابة هذا البحث وانجازه وبعد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يشكر الله من لا يشكر الناس" فإننا نتوجه بالشكر لكل من كان عونا لنا في إنجاز هذا البحث وإتمامه وأخص بالشكر الأستاذ حمداني عبد الرحمان الذي أشرف على بحثنا هذا ولم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته وملاحظاته القيمة، مع منحنا مساحة من حرية إبداء الرأي إيمانا منه بلغة الحوار المثمر بين الأستاذ والطالب كما أتقدم بجزيل الشكر إلى من وقف بجانبنا أثناء إعداد بحثنا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

سورة البقرة الآية 11

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

سورة الأنفال الآية 53

مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين أما بعد.

قد كثرت الأبحاث والدراسات حول شخصيات كثيرة من المفكرين والأدباء الذين عاشوا في القرن العشرين لكن مع ذلك فلا يزال حقل البحث مفتوحا لتسليط الضوء على بعض الشخصيات التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة بالنظر لأثرها الفكري والأدبي.

لعل مالك بن نبي واحد من ابرز هؤلاء المفكرين الذين يحتاجون إلى أبحاث تميط اللثام من أعمالهم القيمة لا سيما تلك التي لديها طابع أدبي.

ورغم الظروف القاسية التي كانت تحيط به إلا أنه استطاع أن يشخص مشكلات راهنة في العالم الإسلامي ومشكلات الحضارة الإنسانية، وكان يدعو إلى الاحتكاك بالواقع المعيشي وإنتاج معرفة من وحي هذا الواقع، كما وقف ضد التكديس الفكري، وضد الحلول التي تؤدي إلى تغيير الواقع، من جذوره خصوصا في ظل معركة حضارية قوامها تكون أو لا تكون وكان دائما يردد "نُغَيِرْ أو نٌغَيَرْ".

انطلاقا من عبارة "نُغَيِرْ أو نٌغَيَرْ". أخذنا عنوان مذكرتنا "إرهاصات التغيير عند مالك بن نبي. والذي من خلاله نكشف أن بن نبي أولى اهتماما كبيرا وعميقا للإنسان المسلم وتابع همومه وحلل الظواهر والمشكلات التي تحيط به وعالجها في سلسلة من الكتب تحت عنوان مشكلات الحضارة وتجسدت ملامح هذا التغيير في رواية لبيك حج الفقراء التي أخذتها كنموذج و تعد هذه الرواية واحدة من الروايات الجزائرية التي حاولت أن تكون سجلا تاريخيا لحياة الإنسان الجزائري المسلم بحيث طرح فيها بن نبي رؤياه للمجتمع الجزائري المسلم عن طريق حديثه عن ركن من أركان الإسلام ألا وهو الحج تتناول قضايا متعلقة بالحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية في فترة مرّ بها المجتمع الجزائري.

- إن طبيعة الموضوع فرضت علينا الإجابة عن الإشكالية التالية نظرة مالك بن نبي للتغيير من خلال مشكلات الحضارة وكيف جسد بن نبي هذه النظرة من خلال رواية "لبيك حج الفقراء"؟
- وكان الدافع إلى دراسة هذا الموضوع قلة الدراسات الأدبية التي اهتمت بمالك بن نبي وبروايته التي كانت مجهولة.
- نظرا لطبيعة الموضوع ومن أجل الوصول إلى الهدف المنشود والإجابة عن الإشكالية والإلمام بجوانب الموضوع اعتمدنا على المنهج:
- التحليلي الوصفي: لأن دراستنا تتناول المنهج الفكري لمالك بن نبي ورؤيته الإصلاحية لتغيير الأمة وبيان شروط نهضتها من خلال ما تخيله في رواية لبيك حج الفقراء.

بنيت دراسة الموضوع على مقدمة، مدخل، فصلين، خاتمة، تناولنا في المدخل التعريف بمالك بن نبي ونظرته للتغيير من خلال مشكلة الحضارة (الإنسان، التراب، الزمن)، وكذلك تطرقنا إلى علاقة رواية لبيك حج الفقراء بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

وفي الفصل الأول فضاء الرواية فتمت فيه دراسة بنية المكان وبنية الزمان، تطرقنا فيه إلى المشكلات المكانية التي أدرجها الروائي في ثنائية (الأماكن المغلقة/ الأماكن المفتوحة)، ثم انتقلنا إلى بنية الزمن درسنا تقنيات المفارقة الزمنية المتمثلة في كل من الاسترجاع والاستباق وقمنا بدراسة الحركة السردية المساهمة في تسريع السرد (الحذف، الخلاصة)، وإبطاء السرد (المشهد، الوقفة) في حين تناولنا في الفصل الثاني بنية الشخصية انتقلنا إلى رصد أنواع الشخصية الروائية (شخصيات رئيسية/ثانوية) وأنهينا الدراسة بخاتمة ضمت أهم الخلاصات والنتائج.

تنوعت المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذا البحث وقد تميزت من حيث الأهمية في علاقتها بالموضوع المطروح ومن أهمها:

المصدر الأم المعتمد في هذه الدراسة "لبيك حج الفقراء"بالإضافة إلى مجموعة من المراجع: شروط النهضة الظاهرة القرآنية، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ومراجع أخرى لازمت هذه الدراسة في مسارها.

واجهتنا بعض الصعوبات في إنجاز هذه المذكرة لعل أبرزها ضيق الوقت بسبب الضغط في السداسي الأول ولظروف خاصة، ضف إلى ذلك قلة المصادر الأدبية التي اهتمت بالموضوع ومع ذلك حاولنا جهدنا لإتمام هذه المذكرة وذلك بعون الله وأعاننا الأستاذ المشرف الذي لم يبخل علينا بالمساعدة والتصويب فجزاه الله عنا خير جزاء والله ولي التوفيق.

المدخل:

- التعريف بمالك ابن نبي ونظرته للتغير.
- علاقة رواية لبيك حج الفقراء بالأدب المكتوب بالفرنسية.

مدخل: التعريف بمالك بن نبي ونظرته للتغيير

التعريف بمالك بن نبي وحياته:

هو مالك بن نبي بن عمر بن الخضر بن مصطفى ولد في 5 ذو القعدة 1323 هـ الموافق لـ الفاتح جانفي سنة 1905 م بمدينة قسنطينة شرق الجزائر، وترعرع في أسرة إسلامية محافظة كانت أمه زهيرة تعمل بالخياطة ووالده موظفًا بالقضاء الإسلامي حيث حول بحكم وظيفته إلى ولاية تبسة حين بدا مالك بن نبي يتابع دراسته القرآنية .والابتدائية بالمدرسة الفرنسية .وتخرج سنة1925 م بعد سنوات الدراسة الأربع.[1]

تأثر مالك بأمه التي كانت تعمل بالخياطة وتجهد نفسها لتسد حاجة البيت، ولاحظ أنها كانت تمسك بكيس النقود الذي كان فارغا دائما، ورغم ذلك فإنها كانت حريصة على تعليم ابنها حتى إنها اضطرت أن تدفع إلى معلم ابنها سريرها الذي تنام عليه بدلا من المال[2] .

قضى مالك في تبسة معظم طفولته، وكانت مدينة أقرب إلى البداوة وذات حضور فرنسي ضعيف والتحق بمدرسة فرنسية مع استمراره في تلقي الدروس في المساجد، وتأثر بصديق له كان يمتلك قدرة كبيرة في الاستشهاد بآيات القرآن ويضفي على تفسيرها بعدا اجتماعيا، كما شهد في تبسة لجوء الجزائريين إلى الاعتصام بالإسلام وتعلم العربية حتى لا تذوب هويتهم في هوية المستعمر، وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية، انتقل إلى قستنطينة ليكمل تعليمه.[3]

[1] ينظر: دار الفكر – آفاق معرفة متجددة https://darfikr.com/.

[2] ينظر: نفس الموقع .

[3] ينظر: نفس الموقع.

سفره وأهم أعماله:

سافر إلى فرنسا مع أصدقائه وهو في العشرين حيث كانت له تجربة فاشلة ثم عاد إلى الجزائر بعدما عانى البطالة هناك ثم قرر أن يواصل دراسته في فرنسا؛ فوصل باريس في جمادى الأولى1349 هـ سبتمبر (1930 م) وكان لتلك الفترة أثرها البالغ على فكره وشخصيته، فقد عاش خلالها أطوارا مختلفة من التجارب كان قاسمها المشترك التحصيل العلمي المتعدد الحقول، مع بعض الإسهامات في أنشطة علمية وثقافية، وكان التخصص الذي يطمح إليه هو دراسة الحقوق، إلا أن طلبه رفض في الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية، فاتجه إلى الدراسة العلمية

التي تعلم منها الضبط والمنهج التجريبي الاستقرائي في التفكير .خاض مالك في باريس نقاشات كثيرة في العقائد مع المسيحيين، وتزوج في عام1350هـ1931 من امرأة فرنسية أسلمت على يديه،واستطاع أن يوسع شبكة علاقاته الفكرية والثقافية في باريس، فالتقى هناك بشكيب أرسلان وغاندي، وكان له حضور متميز في أوساط المغاربة والجزائريين حتى لقب بزعيم الوحدة المغربية، كما استطاع أن يقيم جسورا من التواصل والتعارف مع أبناء المستعمرات الأخرى .تخرج مالك سنة1354 هـ(1935 م) مهندسا كهربائيا.

عاد إلى الجزائر التي اتجهت من زراعة القمح إلى زراعة العنب لكي تصنع منها الخمور للفرنسيين !!وتعجب من بلاده كيف تروي ظمأ سكارى فرنسا وتبخل على أبنائها برغيف الخبز !!لذلك قرر العودة إلى فرنسا سنة1358 هـ (1939م) تفرغ ابن نبي في باريس للعمل الفكري، فعمل صحفيا بجريدة اللوموند، وأصدر أول كتبه وهو" الظاهرة القرآنية" ثم توالت كتبه في باريس، فأصدر كتاب" شروط النهضة "سنة1369هـ (1949)، وكتاب "وجهة العالم الإسلامي "الذي عرض فيه مفهوم" القابلية للاستعمار"، كذلك كتاب" لبيك " و"فكرة الأفريقية الآسيوية ."عاد مالك إلى الجزائر سنة1383هـ(1963م) بعد استقلالها

وتنقل في عدد من المناصب، جميعها في حقل التعليم، وتركزت كتاباته في تلك الفترة على عمليات التغيير وإعادة البناء الاجتماعي في الدول الإسلامية.[1]

مؤلفاته:

تحلَّى مالك ابن نبيّ بثقافة منهجيَّة، استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم قضايا العالم المتخلِّف فألف سلسلة كتب تحت عنوان " مشكلات الحضارة "بدأها بباريس ثم تتابعت حلقاتها في مصر فالجزائر وهي: الظاهرة القرآنية 1946 شروط النهضة صدر بالفرنسية في1948 م وبالعربية في 1957وجهة العالم الإسلامي 1954 الفكرة الإفريقية الآسيوية .1956 النجدة الشعب الجزائري يباد 1957 فكرة كومنولث إسلامي 1958 مشكلة الثقافة 1959 الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة 1959 حديث في البناء الجديد 1960 ألحق بكتاب تأملات تأملات 1961 في مهبِّ المعركة 1962 آفاق جزائرية 1964 القضايا الكبرى مذكرات شاهد للقرن الطفل 1965 إنتاج المستشرقين 1968 الإسلام والديمقراطية 1968مذكرات شاهد للقرن الطالب 1970 معنى المرحلة 1970 مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1970 دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين محاضرة ألقيت في 1972 بين الرشاد والتيه 1972 المسلم في عالم الاقتصاد1972 من أجل التغيير.[2]

وفاته:

توفي في الجزائر يوم 31 أكتوبر 1973 م الموافق لـ 4 شوال 1393 هـ، مخلفا وراءه مجموعة من الأفكار القيمة والمؤلفات النادرة .وتم دفنه في مقبرة سيدي أمحمد بوقبرين بالجزائر العاصمة.[3]

[1] ينظر : https://ar.m.wikipedia.org/wiki.

[2] ينظر: https://ar.m.wikipedia.org/wiki.

[3] ينظر: نفس الموقع.

نظرة مالك بن نبي للتغيير من خلال الإنسان التراب والزمن:

لقد اهتم مالك بن نبي بالمشكلات الفكرية في بلاد المستعمرة وبالقضايا المرتبطة بالحضارة واجتهد في سلسلة من مؤلفاته لتقديم مفهوم شامل للحضارة ومشكلاتها لأن الحضارة يجب أن ينظر إليها من عدة زوايا وأن أي تعريف قد لا يفي بالتعريف الشامل، لمعناها الحقيقي من حيث جوانب تركيبها وتكوينها ووظائفها وتطورها التاريخي والثقافي والاجتماعي[1].

يعرف مالك بن نبي الحضارة بأنها "مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده المساعدة الضرورية له، " ويقصد مالك بالشروط الأخلاقية تلك الإرادة التي تدفعه إلى تحديد أفكاره ومهامه الاجتماعية وتحقيقها، أما الشروط المادية فهي توفر الوسائل الضرورة للقيام بمهامه ووظائفه[2]، فالحضارة هي أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة ويدرك الوقت ذات الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة من أجل وظيفتها التاريخية.

فالحضارة ليست مجرد ثقافة ومعارف لدى فرد أو مجموعة من الأفراد داخل مجتمع ولا هي منتجات تباع وتشترى بل هي طموح وإرادة يتشارك فيها أفراد المجتمع الواحد وتتوفر فيه العوامل والشروط الاجتماعية والروحية والمادية التي تهيئ المناخ لبروز شبكة علاقات اجتماعية لها القدرة على إبداع المعارف وإنتاج الأشياء لاستغلالها في خدمة الإنسان[3].

هكذا عرف بن نبي الحضارة بكل جزيئاتها، ومن خلال اتساع فكره ومعارفه من العالم العربي إلى العالم الإسلامي اتضح لابن نبي أن مشكلات الإنسان في جوهرها مرتبطة

---

[1] ينظر: آمنة تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي واولوندتونتي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص111 .

[2] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، الطبعة الثانية، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر دمشق، 2002، ص43 .

[3] محمد عبد السلام الحفائري، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1984، ص125.

بمشكلة الحضارة[1] وهي ثلاث مشكلات مشكلات الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت(الزمن).

حضارة= إنسان+ تراب+ وقت.

ويستنتج أن صناعة الحضارة تتم تبعا لثلاث عناصر:

الإنسان:

وهو أهم عنصر باعتباره هو الذي ينتج الحضارة بالإصلاح والتغيير ولا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غير نفسه "غير نفسك تغير التاريخ" وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]

فالشرط الأول في عملية التغيير المطلوب لأي حركة أو فعل نحو التحضر هو تغيير عالم النفس بإزالة كل ما فيها من اعوجاج وأعراض وفساد في التصورات والمفاهيم، وما فيها من جهل الأمور وغموض في الفهم وتصويرها بالحقيقة وتهذيبها على مكارم الأخلاق، وتحفيزها على الأخذ بالإيمان الصادق والعمل الدءوب والعلم النافع، فتمكين النفس من هذا المطلب هو أصل التجديد الحضاري لينعكس فيما بعد على الواقع الاجتماعي والطبيعي.

فالإنسان في نظر مالك بن نبي هو العنصر الأساسي في تشييد أو قيام أي حضارة غير أن هذا الإنسان هو الذي يؤثر في سير التاريخ.

كما أن مشكلات الإنسان مرتبطة في أساسها بمشكلة حضارته فكذلك بالنسبة لمشكلة كل شعب يقرر ابن نبي أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ومالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها[3].

---

[1] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل المسقاوي، عبد الصابور شاهين،الطبعة الرابعة دار الفكر، دمشق، 1987، ص45.

[1]القرآن الكريم، سورة الرعد، آية 11 .

[3] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 19.

يطلق ابن نبي العوامل الأساسية للحضارة (إنسان، تراب، وقت) بالمركب الحضاري أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة ببعضها البعض ويؤكد أن الفكرة الدينية هي التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ.[1]

ويلاحظ ابن نبي أن للتاريخ دورة وتسلسلا، فهو تارة يسجل الأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة وتارة أخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها إلى نومها العميق. ويؤكد ابن النبي أن "التاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا وشاهدا، وينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل بالجزء المحروم من قوة الجاذبية بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل لم يعد يقدم لوجوده أساس روحي أو أساس مادي[2] كما يرى أن الحضارة الإسلامية انتهت منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان وليس من التطرف في شيء القول بصفة عامة أن الحضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان [3]. هنا ابن مالك يربط بين الحضارة وقيمة الإنسان.

وعند قراءة فكر ابن نبي ومن خلال محاولاته يتبين لنا بوضوح مدى جرأته في الإشارة إلى زوال الحضارة الإسلامية وربط ذلك بانحطاط إن لم يكن انعدام قيمة الإنسان في العالم الإسلامي.

ونظرا للقيمة والأهمية التي يحتلها الإنسان في بناء أي مشروع حضاري فإن ابن نبي لم يتوان في التأكيد على أن المشكلة الأولى والأساسية في العالم الإسلامي هي مشكلة الإنسان إلى جانب مشكلتي التراب والوقت وصنف الإنسان بصفة عامة في علاقته بالحضارة إلى الإنسان ما قبل الحضارة، إنسان الحضارة وإنسان ما بعد الحضارة ونجد هذا جليا في قوله "وقبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 46 .

[2] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، الطبعة الثانية، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر دمشق، 2002، ص33 .

[3] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، الطبعة الثانية، دار الفكر دمشق، 2000، ص164.

للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا وسلبت منه الحضارة تماما. فيدخل في عهد ما بعد الحضارة.[1]

بالإضافة إلى هذا يرى أن الإنسان الذي تفسخ حضاريا مخالف تماما للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري. فالأول ليس مجرد إنسان خارج عن الحضارة فحسب كما هو الحال مع الثاني الذي سميناه فيما سلف بالإنسان الطبيعي.

إن الإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلا لإنجاز عمل محضر " oukere civilistric" إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعدا، كما هو الحال مع اليدوي المعاصر للنبي للدخول في دورة الحضارة.[2]

وهكذا يرى ابن نبي الإنسان ويشخص حالته في العالم الإسلامي فهو إنسان متفسخ حضاريا يحتاج إلى تغيير جذري وإعادة بناء من جديد لروحه. وعقله وسلوكه. ووجدانه وعلى هذا الأساس عالج المفكر مالك بن نبي مشكلات الأفكار واهتم بها من خلال محاضرته، وكتبه المختلفة[3].

وفيما يأتي يمكننا استعراض أفكار بن نبي في جوانب مختلفة التي تشكل الإنسان وسنلاحظ انه قد أولى أهمية قصوى للجوانب الروحية والعقلية والسلوكية ضمن إطار تتكامل فيه هذه الجوانب في تناغم بديع دون إهمال للجوانب الجسمية والوجدانية التي تتفاعل وتتكامل أيضا مع الجوانب الأخرى.

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص70.

[2] المصدر نفسه، ص70.

[3] المصدر نفسه، ص70.

الجانب الروحي: تحدث بن نبي على فلسفة الإنسان في الإسلام "أما الإسلام فقد أعطى الإنسان كل حجة في ضمير المسلم لأنه وضع قيمته في هذا الضمير، لا على تقدير الكم ولكن على أساس غيبي يجعلها قيمة لا متناهية".[1]

وفي هذا الجانب ربط بين ظهور الحضارة في أمة من الأمم واكتشاف الإنسان لأسمى الأشياء فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعا ومنهاجا.أو هي على الأقل تقوم أساسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام. كأنما در للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته. إذ حينما يكتشف حقيقة حياته كاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها.[2]

ويرى أن الدين عامل أساسي في البناء الحضاري، ويلخص دور الفكرة الدينية كوسيلة تقوم بتركيب مختلف العناصر التي تشكل الحضارة، أو جملة القول أن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة مادات هناك فكرة دينية تؤلف العوامل الثلاثة: الإنسان التراب والوقت لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ حضارة."[3]

بالإضافة إلى هذا يقيم ابن نبي علاقة وثيقة بين الجانب الروحي والجانب السلوكي ويؤكد دور العلاقة الروحية في إقامة العلاقات الاجتماعية وذلك في قوله " فالعلاقات بين الله والإنسان هي التي تولد العلاقة الاجتماعية وهذا بدوره يربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان.....فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان حركة تطور اجتماعي واحد.[4] وفي هذا السياق يؤكد بأن دور الفكرة الدينية لا يتوقف عند انجاز رسالة حضارية (متحضرة) بل تتعدى ذلك إلى الحفاظ على استمرار الحضارة، لأن الفكرة الدينية

[1] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، الطبعة الثالثة، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر دمشق 1986، ص 165.

[2] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص50.

[3] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 58.

[4] المصدر السابق، ص52.

تجعل المجتمع والإنسان على بصيرة من هدف جهوده مما يكون له قوة دافعة.[1] ولا يتوقف الهدف الذي تنشئه الفكرة الدينية على ما يحققه المجتمع في الحياة الدنيا بل تشكل عند الإنسان والمجتمع غائية أبعد من ذلك وتربط هذه الغائية بالآخرة مما يعطي للحياة دلالة ومعنى وعندما تمكن الفكرة الدينية لهذا الهدف من جيل لجيل ومن طبقة لأخرى فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء مجتمع ودوامه وذلك بتثبيتها وضمانها لاستمرار الحضارة.[2]

للعنصر الديني دور فعال في البناء الحضاري وقد يحدث تغيير في المجتمع من خلال قيامه بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من حالة طبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على مرحلة معينة لحضارة. فالدين يجعل الإنسان وحدة اجتماعية والوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط مجالا مجهزا مكيف تكييفا فنيا يسد الحاجات الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج.[3]

الجانب الجسمي: باعتبار الإنسان كعامل أول للحضارة يرى ابن نبي أن له قيمتان: القيمة الأولى طبيعة والثانية اجتماعية:

الطبيعية موجودة في التكوين البيولوجي لكل فرد وتتمثل في استعداده الفطري لاستعمال عبقريته وترابه، ووقته، أما القيمة الاجتماعية فانه يكتسبها من وسطه الاجتماعي وما يحيط به من وسائل يجدها الفرد في إطاره الاجتماعي لترقية شخصيته وتنمية مواهبه وتهذيبه.[4]

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص71.

[2] المصدر نفسه، ص72.

[3] ينظر: مالك ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص32

[4] ينظر: ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص145.

فللفرد كيانا ماديا روحيا فالمادي يشكل مجاله الحيوي ويمنحه منذ ولادته العناصر الضرورية لنموه بواسطة عمليات الهضم والتمثيل ودوران الدم والتنفس. أما بالنسبة للمجال الروحي هو الذي ينميه من الناحية النفسية فإذا فقد الاتصال بالجانب المادي الحيوي فانه يموت موتا ماديا كذلك الأمر بالنسبة للمجال الثقافي إذا فقد الاتصال معه يموت موتا ثقافيا.[1]

الجانب العقلي: أولى ابن نبي اهتماما كبيرا للجانب العقلي عند الإنسان كما يتجلى في عالم الأفكار الذي درسه دراسة مستفيضة وخاصة في علاقته بالبناء الحضاري. ويؤكد أن القوة الدافعة والأساسية في عملية هذا البناء هي الطاقة الروحية والطاقة العقلية تأتي في الدرجة الثانية. ويلاحظ أن بن نبي لا يتناول الجانب العقلي تناولا مجردا بل يركز أساسا على الجانب العملي منه (المنطق العملي) ويرى أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإدارة والانتباه شيء يكاد معدوما في العالم الإسلامي.[2]

الجانب الوجداني: نتحدث على هذا الجانب بصفة مختصرة فابن نبي لم يهتم به بصفة مباشرة. إلا انه لم يغفله عند تحليله لمشكلة الثقافة. وفي حل المشكلات الأخرى التي تواجه مجتمعا ما. لقد خصص في كتابه مشكلة الثقافة محورا تحت عنوان "التوجيه الجمالي" وهذا لدراسة تأثير الجمال في الوجدان والإدراك والسلوك. فابن نبي يعتبر الجمال في النفس الإنسانية" الذي يصبح صورة الحسن أو القبح في النفس الإنسانية[3].

– ومن القضايا المرتبطة بالوجدان التي عالجها بن نبي قضية المشاعر السلبية كالكراهية والحقد الذين ينشئان في النفس بفعل عوامل خارجية كالاستعمار (في البلاد المستعمرة مثلا). بعد الاستقلال وبعد مرور المرحلة الحماسية لا تصلح أن تكون دافعا ساميا يحرك حضارة

[1] ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، الطبعة الخامسة ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر، دمشق، 2000، ص150.

[2] ينظر: مالك ابن نبي، شروط النهضة، ص95.

[3] ينظر: مالك ابن نبي، مشكلة الثقافة، ص81 .

ويعطيها مثلها الأعلى ووكبتها الضرورية، وفضلا على ذلك فإن هذه النزعة إذا ما صفي من المشاعر (الإيجابية) غير الزمن فقد لا تدع هذه التصفية سوى (مشاعر سلبية) تقوم على حقد الشعوب التي قاست ظلم طغاتها بينما القضية ليست أن تنزع العالم من موجة احتقار الكبار لتسلمه إلى حقد الصغار[1].

الجانب السلوكي: يؤكد ابن نبي أن التفكير في مشكلة الحضارة هو أساس تفكير في مشكلة الثقافة.[2] فالمشكلة السلوكية لا يطرحها على المستوى الفردي فقط بل يحاول تشخيصها على مستوى المجتمع والحضارة فإن نبي يقرن التحضر بتعلم الإنسان للعيش في جماعة وبإدراكه في نفس الوقت الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية.[3]

يربط بن نبي بين مصير الإنسان ومصير الثقافة عندما يؤكد أن مصير الإنسان مرهون دائما بثقافته ولا يكتفي بهذا بل يوضح أيضا أن التفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى حظه في الحياة هو أساسه التفكير في مشكلة الحضارة.

فمالك بن نبي اهتم بمشكلات الواقع مشكلات الحضارة ورأى في جوهره المشكلة يكمن في الوضع الذي يوجد عليه الإنسان وعلق أملا كبيرا على الفاعلية الإنسانية في إحداث التغير.

فإذا كانت مشكلة الحضارة الأولى هي الإنسان فإن المشكلة الثانية هي الأرض التي يعيش عليها أو ما عرفه، مالك بن نبي بالتراب الذي لا يقصد به تلك المادة من الطبيعة بل من حيث قيمته ووظيفته الاجتماعية، فقيمة التراب تكون غالية أو منخفضة حسب الأمة التي تعيش عليه.

---

[1] ينظر: مالك ابن نبي، مشكلة الثقافة، ص106.

[2] مالك بن نبي، ميلاد...، ص88.

[3] ينظر: مالك ابن نبي، مشكلة الثقافة، ص101 .

2- التراب:

التراب أحد العناصر الثلاثة التي تكون الحضارة، فإذا ما توفر "المركب الديني" لتركيب هذه العناصر فإننا نرى التراب في بلاد الإسلام جديرا ببحثه هنا كعامل من عوامل الحضارة[1]،وهذا يعني أن عنصر التراب يعد من العناصر الأساسية التي تقوم عليها الحضارة، ثم إن التكلم عن التراب لا نقصد به البحث في خصائصه وطبيعته، وإنما البحث عن قيمة الاجتماعية المستمدة من قيم ماليكه.[2] أي أن قيمة التراب تكون غالية بارتفاع وتقدم الأمة والحضارة وتنحط بانحطاطهما.

نظرة مالك بن نبي للتراب:

إن المشكلة الأم في حياة الإنسان والأمة هي مشكلة الحضارة، وشروط حل هذه المشكلة هو الارتقاء بالفكر للإلمام بشروط النهضة والتحضر، فالتراب من وجهة نظر مالك بن نبي في أرض الإسلام على شيئ من الانحطاط، وذلك بسبب تأخر القوم الذين يقطنون فيه.

ولقد شاهدت الصحراء قبل عشر سنوات جنوب مدينة (تبسة) ولكنها اليوم قد أصبحت شمالها. وليس بمستبعد، إذا ما وصلت الصحراء هذا التقدم .أن تكون عاصمة البلاد بعد قرن أو قرنين واحة محفوفة بشيء من النخيل تحيط بها الرمال.[3]

وهذه في الحقيقة مصيبة دامية إذ تموت الأرض وتترك أهلها دون مطعم ولا مشرب غير بعض من أشجار النخيل، وبقية مما ترك، الشتاء من مطر[4]. حيث أن هذا المصير يشبه إلى حد كبير مأساة (برقة) التي اكتسحتها الرمال، ولكن سكان هذه الأرض

[1] ينظر، ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص131.

[2] المصدر نفسه، ص131.

[3] المصدر نفسه، ص131.

[4] المصدر نفسه، ص132.

وقفو موقف اللئيم أمام هذا الغزو، أي أن سكان البادية فر إذ لم يبق له لا أرض ولا ماشية ولا دابة، فهو الآن تائه بين الصحراء القاحلة بين المدن الساحلية التي تنبذه.[1]

ولقد كان من آثار هذا الجذب الضارب في الأرض، أن أصبحت رحلة القبائل في الشتاء والصيف مهددة بالانقراض، وسوف يكون في انقراضها انقراض الرجل الفطرة الذي لم يستقر مصيره في البلاد.[2]

وهكذا يذهب تراثنا الحيوي – تراث اللحم والدم. يذهب هباء انه الهرب... انه التشتت... انه الموت!!![3]

ويرى بن نبي أنه ورغم خطورة الوضع، إلا أن هذا لا يدعو إلى الإبلاس من الإصلاح وذلك بإنقاذ الشعب من خطر الموت في أسماله[4] أي أن التفكير في النهوض أو البناء الاجتماعي يتوقف على الوقت والملبس ثم طرح القضية على بساط التخطي.

فالتراب كذلك هو ما تخرجه الأرض من خيرات بكل أشكالها وصورها ولا يقتصر على الزراعة، فالمواد الخام والعناصر الثمينة والبترول، كلها من ثمار الأرض وتراب. واستخراج هذه الثروات بالعمل لا بد أن يقترن بالتوجيه والفكر لكي تسخر هذه الخيرات في بناء الحضارات، لا في شراء المكدسات الحضارية.

وقد سبق أن بحثت هذه القضية من الناحية الزراعية بحثا كاملا متخصصا، غير أننا نود أن نلفت النظر إلى وجه آخر فيها، وذلك من حيث تأثير المناخ والأحوال الجوية، وهي تخص على الأقل 10% من البلاد الإسلامية، مثل باكستان والأناضول والحجاز وغيرها، فعلى طول الخط الذي يمتد من جنوب تونس إلى جنوب مراكش تتقدم الصحراء طل

[1] ينظر، ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص132.

[2] المصدر نفسه، ص132.

[3] المصدر نفسه، ص132.

[4] المصدر نفسه، ص132.

سنة، والسبب في ذلك يعود بلا شك إلى الإقلال من الأشجار والغابات إقلالا بالغا وبخاصة في الأعوام الأخيرة[1]. حيث أن انقراض الغابة في الشمال الإفريقي له تاريخ قديم[2] . حيث أن من ذلك الوقت بدأت الأراضي الصالحة للزراعة تلتهم لتدفن تحت الرمال، فالبادية في الأصل هي أرض وفيرة خضراء، وتغير شكلها مع مرور الوقت، وهذا التغير بدوره يؤدي إلى تغير الحياة الاقتصادية. وبالتالي تظهر صورة حياة اجتماعية كاسدة.[3]

لقد كانت بلاد الشام الشمال الإفريقي قبل ألف سنة تحتوي مساحات من الأشجار تبلغ سبعة ملايين من الهكتارات غير أننا نجدها اليوم نقصت إلى الثلث تقريبا، وهنا يكمن سر المأساة التي نعيشها اليوم، حيث نجد الجو لا يكف عن أن يقترب يوما فيوما من الطقس الصحراوي والقاري[4]حيث أن القضية أصبحت تمس كيان الفرد لا مصالحة فقط فعلى سبيل المثال انخفض عدد السكان في منطقة جنوب قسنطينة وهي (تبسية) منذ عام 1939 إلى الآن، من مائة وثمانين ألف إلى أربعين ألف تقريبا، بينما الماشية التي كانت مورد الإقليم الوحيد نجدها اليوم على وشك الانقراض.[5] إذ أن السبب يعود إلى ندرة الأمطار التي ينجر عنها الجفاف، وبهذا تولد الصحراء في أحضان الأرض الوفيرة.

ويعد الحل الأمثل لهذه الأزمة هو الشجرة وذلك على الرغم من أن علماء الدول المتمدينة، يستعملون الطاقة الكامنة في الذرة، وهذا يعد تدميرا للأرض لا تعميرا لها، لكنهم يجهلون أن القضية تتطلب شجرة واحدة بل عددا من الأشجار[6].

[1] ينظر ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص132- 133

[2] المصدر نفسه، ص 133.

[3] المصدر نفسه، ص 133.

[4] المصدر نفسه، ص133.

[5] المصدر نفسه، ص134.

[6] المصدر نفسه، ص 134.

أي أن العديد من الدول واجهت مثل هذه المحن لكن تصدت لها بحكمة وفطنة ودهاء.

ولقد قامت فرنسا حوالي 1850 بغرس الأشجار في الناحية الجنوبية الغربية من البلاد، حيث كانت رمال الشاطئ الأطلسي والمستنقعات الضارة تهدد مصالح أهلها وصحتهم، ولكن سكان تلك المنطقة انطلقوا بهمة وصبر، يوقفون الرمال عند حدها، وتكبدوا في سبيل ذلك ما تكبدوا وقضوا عشرين سنة يسدون الطريق على الرمال من مدينة (بوردو) إلى مدينة (بيارتيز).[1] بحيث انتهت العملية بنجاح والفوز على الرمال، وحققوا الانتصار غير متوقع.

فعلى الرغم من فقر المنطقة، وتشكيلها خطورة على الصحة في فرنسا، إلا أنها وبفضل الأشجار الكثيرة أصبحت معجزة الاقتصاد، حيث أصبحت أول منتج في العالم لزيت (التربينتين) بالإضافة إلى أنها أصبحت أيضا ملجأ صحيا لمختلف المرضى من جميع أنحاء العالم.[2]

ولن يعيبنا أن نضرب أمثلة من جمبع أنحاء العالم للتدليل على ذلك الانتصار الباهر الذي سجله الإنسان على العوامل الطبيعية، وذلك باستعماله الثلاثية الدائمة: الإنسان والتراب والزمن، ويكمن أن نذكر –لو لا الإطالة– المعجزات التي قامت بها روسيا في هذا الميدان، وكذلك هولندا، التي يعتبر أكثر من ثلث بلادها مصنوعا بأيدي أهلها[3].

[1] ينظر، ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص 134.

[2] المصدر نفسه، ص 134.

[3] المصدر نفسه، ص 135.

إلا انه من المفروض العمل لأن العمل ضروري لدراسة طبيعة الأرض والمناخ، هذا من الناحية الفنية أما من الناحية النفسية فيلزم أن يكون للشجرة عيدا يتمثل فيه كفاحنا ضد الرمل، وأن تكون هذه الشجرة غدا هي رمز للعرب والإسلام[1].

لن نستطيع إنقاذ ذريتنا من الأجيال القادمة إلا بالعمل الشاق الذي يقوم به جيلنا الحاضر، وعندما تتحقق تلك المعجزة التي تكون بانتصارنا على أنفسنا، وعلى أهوال الطبيعة، فإننا سوف نرى أية رسالة في التاريخ نحن منتدبون إليها، لأننا نكون قد شرعنا في بناء حياة جديدة، ابتدأت بالجهود الجماعية بدل الجهود الفردية وسوف تظهر امامنا بعد ذلك أعمال جليلة خطيرة، ولكنها سوف لا تخيفنا، لأن شعبنا أخضع التراب، ومهد فيه حضارته ولم يعد شعبا يخاف نوائب الزمن.[2]

وذلك بتوضيح فكرة العمل وتوجه العمل لتضافر الجهود الجماعية نحو وجهة وهدف وغاية واحدة فتوجيه العمل هو عملية تأليف لكل الجهود الفردية بطريقة فعالة لتغيير وضع الإنسان في مجتمع ما ولخلق بيئة جديدة ومن هذه البيئة يشتق العمل المعني الآخر الذي يرتبط دائما في أذهاننا وهو كسب العيش لكل فرد.

3- الزمن:

لقد عبر مالك ابن نبي عن قيمة الزمن في حياة الفرد والشعوب بشكل جد مفيد وذلك من خلال قوله "الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل !، فهو يمر خلال المدن يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يقلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، يفيض من الساعات اليومية التي تفيض، ولكنه

[1] ينظر، ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص135.

[2] المصدر نفسه، ص 136.

في مجال ما يصير "ثروة" وفي مجال آخر يتحول عدما[1]. فهو يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال[2].

أي أن الزمن ذو قيمة غالية في الحياة، إذ هو بمثابة نهر صامت، لكن نسيانه والغفلة عنه تشكل خطرا على الحضارات بذلك عنصر من عناصر تشكل الحضارات وازدهاره.

ومع ذلك ففي ساعات الخطر في التاريخ، تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء، إذا استيقظت ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لايقوم الوقت بالمال، كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر[3].

حيث ان الناس يدركون قيمة الوقت، حينما يكون لازما للمحافظة على البقاء والخلود وتحقيق المصالح فيصبح الفرد لا يهتم إلا بالساعات نفسها[4]. رغم أن فلسفة الإسلام تمتد بقيمة الزمن إلى الآخرة، فالإنسان يحاسب على كل لحظة في حياته، فالحياة كد وجد، والنفس إن لم تشغلها بالأعمال شغلتك باللهوات، إن الشعار الذي ترفعه حضارة الغرب هو الطرف الآخر هو (الزمن هو الحياة)، فإن الشيء الذي يرفعه الإنسان المسلم هو (أرواح نعقبوا الوقت)، (وعندنا الوقت)، (ومزال الحال).....

فالوقت هو بمثابة العملة الذهبية التي يمكن أن تضيع لكن لا تستطيع أي قوة أن تستعيد الدقيقة أو الساعة إذا ضاعت.

وحظ الشعب العربي والإسلامي من الساعات كحظ أي شعب متحضر ولكن ... عندما يدق الناقوس مناديا الرجال، والنساء، والأطفال إلى مجالات العمل، في البلاد المتحضرة ...أين يذهب الشعب الإسلامي؟! تلكم هي المسالة المؤلمة...فنحن في العالم الإسلامي نعرف شيئا يسمى "الوقت". لكنه الوقت الذي ينتهي إلى العدم، لأننا لا ندرك

[1] ينظر: ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص139.

[2] المصدر نفسه، ص 139.

[3] المصدر نفسه، ص 139.

[4] المصدر نفسه، ص 139.

معناه، ولا تجزئته الفنية، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة، ثانية، ولسنا نعرف إلى الآن فكرة " الزمن" الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ، مع أن فلكيا عربيا مسلما هو "أبو الحسن المراكشي" يعتبر أول من أدرك هذه الفكرة الوثيقة الصلة بنهضة العلم المادي في عصرنا[1].

أي أنه بالزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج الذي يمثل جوهر الحاضرة الذي نفقده، فالحياة والتاريخ مرتبطان بالزمن، لذا وجب علينا وضع توقيت دقيق لسد التأخر.

إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ. لا يجب أن يضيع هباء، كما يهرب الماء من ساقية خربة. ولاشك أن التربة هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر، ولكن بأية وسيلة تربوية.....[2]

حيث أنه من الضروري أن تكن هناك وسيلة تربوية وذلك للحفاظ على الوقت وقيمته.

فمن الصعب سماع خطى الوقت وإدراك قيمته لو لم تكون هناك تربية يتحلى بها هذا الشعب، فمن الضروري ان نعلم المسلم علم الزمن، وذلك بتخصيص نصف ساعة يوميا لآداء واجب معين وهذا خدمة لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية[3].

أي نحن حين نؤدي واجباتنا، فإن حقوقنا سوف تأتي إلينا مهما كان الثمن، فالإنسان الذي يريد أن يعرف من شأن مفهوم الحياة عنده، ويسعى للآخرة سعيها عليه أن يدرك قيمة الزمن في الحياة وفي حركة التاريخ فالزمن هو الحضارة. فإن ساد هذا القانون ومشى الناس على هذا النحو فلم يضع الوقت سدى، ولم يبق وجود للكسل، وبهذا سترتفع كمية حصادنا العقلي والروحي واليدوي.

---

[1] ينظر: ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص 140.

[2] المصدر نفسه، ص 140.

[3] المصدر نفسه، ص140.

ولابد لنا في خاتمة هذا الفصل أن نورد تجربة قريبة منا، وواقعة تحت أنظارنا، وهي أيضا في متناول المقاييس العملية الثانية، تلك الحرب التي خلفت وراءها ألمانيا عام 1945 قاعا صفصفا، حطمت فيها كل جهاز للإنتاج، ولم تبق لها من شيء تقيم على أساسه بناء نهضتها، وفوق ذلك فقد تركتها لتصرف شؤونها تحت احتلال أربع دول، فلما بدأ النشاط يسري في نفس الشعب الألماني في مستهل سنة 1948 كان ساعنتئذ في نقطة الصفر من حيث المقاومات الإقتصادية الموجودة لديه.[1]

واليوم، وبعد عشر سنوات تقريبا نرى معرض ألمانيا يفتح أبوابه بالقاهرة في شهر مارس 1957 فتذهلنا المعجزة، إذ ينبعث شعب من الموت والدمار، وينشئ الصناعات الضخمة، التي شاهدناها.[2]

حيث أن هذه المعجزة كان وراءها عوامل شتى من بينها الاقتصاد في الجهاز الإداري، وفي التكاليف الإدارية ولكن أبرز عامل والذي يعتبر هو أهم عامل: الزمن[3].

وتم هذا بفرض الحكومة على الشعب الألماني كله التطوع يوميا بساعتين زيادة عن العمل اليومي وذلك من أجل خدمة المصالح العامة فقط بهذا كان السر في النجاح[4].

وقد سمي هذا التجنيد العام **ROBOTER ARBEIT** وهو العمل للمصلحة العامة. فهذه المعجزة الاجتماعية التي أتت بها ألمانيا، قد كان الزمن في إفراجها حظ موفر، ويمكننا أن ندرك قيمة الوقت مباشرة في عودة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لشعب لم يبق لديه من الوسائل إثر الحرب الثانية إلا العناصر الثلاثة الإنسان التراب، والزمن.[5]

فالزمن هو قيمة إنسانية ثمينة، وبما انه هو عامل من عوامل الحضارة يمثل ثروة في مجال ما، ويكون عدما وفراغا في مجال آخر.

---

[1] ينظر، ما لك ابن نبي، شروط النهضة، ص 141.

[2] المصدر نفسه، ص141.

[3] المصدر نفسه، ص 142.

[4] المصدر نفسه، ص142.

[5] المصدر نفسه، ص 142.

فإدراك قيمته والحرص عليه يمكن أو بالأحرى ينتج عنه المعجزات، لأنه يعد جوهر الحياة الذي لا يقدر بثمن. ويؤكد مالك بن نبي أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس، فليس واجبا لكي ننشئ حضارة أن نشتري كل منتجات حضارة أخرى فذلك ممتنع كما وكيفا، فحتى يركب العالم الإسلامي حضارته في زمانه هذا وجب عليه أن يرجع إلى تلك الصيغة التحليلية التي تصنع كل فاتج حضاري:

ناتح حضاري = إنسان + تراب (مادة)+ وقت.

ومن هنا فإن الحضارة تترتب على ثلاثة عناصر مهمة يكون فيها الإنسان هو العنصر الأساسي لأنه يؤثر على عنصر التراب والوقت وهو الذي يحدد فعاليتهما أو ركودهما، وكما قلت سابقا تبقى هذه العناصر مجرد كلمات حتى يتم ربطها بالعالم الديني لأن له دور في تفعيل مركب الحضارة.

إذا كانت الحضارة بناء لا تكديسا واستيرادا فهي فعالية إنسانية تقوم على تغيير الإنسان في عالمه النفسي أولا ثم تغيير محيطه ثانيا، وتحصل هذه الفعالية لما تتوفر جملة من الشروط والعوامل النفسية والاجتماعية والروحية والمادية، تتوفر الإدارة والقدرة على إبداع المعرفة وإنتاج الأشياء، واستغلال ذلك لخدمة الإنسان وضمان راحته، ولفصل الحضارة الحقيقة عن الحضارة المزيفة، فالأولى تلد منتجاتها أما الثانية فهي من صنع منتجات الغير، والتجديد الحضاري ظاهرة إنسانية ترتبط بالحضارة وبشروطها وعناصرها وأطوارها وازدهارها، وتكون على الحضارة فتصنع النمو والتحضر والازدهار، كما تكون ملازمة لها فتستمر في تنميتها وتطورها، وقد تكون سببا في انهيارها وأقوالها، والمقصود هنا عندما تبلغ الحضارة طور العقل يضعف سلطان الروح وتسترد الغريزة نفوذها فتهوي بالإنسانية إلى حضيض الحيوانية حيث شريعة الغاب.

وأخيرا فالحضارة عند مالك بن نبي صيرورة مستمرة فحركتها تبدأ بالولادة، الشباب، الشيخوخة، القوة، الضعف والحضارة تنتقل من مكان إلى مكان ومن شعب إلى شعب فهي

لا تعرف الثبات والسكون ظاهرة مجتمعية لها صيرورتها التاريخية تمر بمراحل بدايتها الروح، ثم تدخل بعد ذلك مرحلة جديدة تسمى مرحلة العقل ثم مرحلة الغريزة تكون في حركة مستمرة وهذه الحركة عند بن نبي يسعى من خلالها للتغيير والتجديد الحضاري فهي تعبر عن التطور في نفسية الإنسان وحالة المجتمع من زهور الى اخر خلال محور الزمن والتغيير عند مالك بن نبي لايعني إلغاء القديم والبدئ من جديد بقدر ماهو استيعاب القديم وتجاوز عوائقه الأخذ به نحو أفاق أرحب.

علاقة رواية لبيك حج الفقراء باالأدب المكتوب بالفرنسية:

إن بدايات الأدب الجزائري عموما والمكتوب باللغة الفرنسية خصوصا تولّد بعد تراكم كبير للأوضاع الاجتماعية والسياسية الصعبة التي عاشها الشعب الجزائري أثناء الاحتلال برز الأدبُ المكتوب بالفرنسيَّة في الجزائر والمغْرب وتونس بعد الحرْب العالميَّة الثانية، كان يحمل همَّ شعوب مستعْمرةٍ وفقيرة، مغلوبة على أمْرِها تطْمَح إلى التحرُّر والحياة الكريمة، فكان رسالةً إلى الطَّبقة المثقَّفة والسَّاحة الفرنسيَّة نفسِها لتدرك معاناةَ هذه الشعوب[1]. للحديث عن البدايات الفنية الحقيقية الأولى للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية كانت ولادتها في بادئ الأمر عسيرة فقد ذكر الباحثون أنها ظهرت مع مولود فرعون سنة1950 برواية (ابن الفقير)،وهذه الرواية البسيطة في بنائها ومضمونها عبارة عن سيرة ذاتية للمؤلف نفسه، ثم ظهرت رواية (نجمة)لكاتب ياسين سنة1956،أما القصة القصيرة الفنية فلم تتضح معالمها وسماتها إلا بعد قيام الثورة بحيث اتجهت إلى واقع الشعب ومن هؤلاء محمد ديب في مجموعته الأولى في (المقهى) و(الطلسم)،لكن الذي لم تذكره كل الدراسات الأدبية أن مالك بن نبي هو أول أديب جزائري يكتب رواية فنية باللغة الفرنسية وعنوانها (لبيك حج

[1] ينظر: نوار عبيدي : معالم رغبة التغيير والثورة في رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي https://binbadis.net/archives/574

الفقراء)،وقد نشرها سنة 1947 عن دار النهضة في الجزائر،أي قبل أعمال فرعون أو ديب أو ياسين [1].

وهنا وجب علينا تصحيح هذا التاريخ الذي ولأسباب مجهولة طمس معالم هذه الرواية المهمة تاريخيا على الأقل ويعود الفضل في ظهور هذه الرواية للباحث الجزائري زيدان خوليف الذي ناقش أطروحة دكتوراه في جامعة السوربون باريس سنة 2006 تحت عنوان حياة وأعمال مالك بن نبي من عام (1905، 1973) وقد عثر الباحث زيدان خوليف على رواية مالك بن نبي مكتوبة بالفرنسية، وترجمها مشكورا إلى العربية، ونشرت لأول مرة سنة 2009 عن دار الفكر بدمشق، وتقع في 156 صفحة من القطع المتوسط. الرواية قدم لها المفكر والأديب عمر كامل مسقاوي تلميذ وصديق ابن نبي، هذا الأخير ذكر في مقدمة الرواية أن الباحث زيدان خوليف زاره في طرابلس الشام سنة 2006 لغرض إتمام بحثه وزوده برواية ابن نبي حيث قال: « كنت أسمع بقصة (لبيك) ولم يكن ابن نبي يحدثنا عنها ونحن من حوله طلاب سوى إشارة عابرة حول موضوعه... وقد قيل لنا تواردا بأنها إحدى إبداعات مالك بن نبي في الأدب الفرنسي « تعد رواية"لبيك"إحدى الإبداعات في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية (عالجت موضوع الخمرة والضياع) إلا أن أحدا لم ينتبه لذلك[2].

نحن هنا بصدد التأكيد على أن هذه الرواية أولى الأعمال الأدبية في النثر الجزائري التي تحمل وعيا ونضجا فكريا وسياسيا وفلسفيا وإبداعا فنيا، وقد جاءت الرواية مباشرة بعد صدور كتاب الظاهرة القرآنية سنة 1946،ويعد هذا الكتاب أقوى كتب مالك بن نبي وكتبها بمستوى هذا الكتاب[3] .

[1] ينظر: نفس الموقع .

[2] ينظر: نفس الموقع .

[3] ينظر: نوار عبيدي، معالم رغبة التغيير والثورة في رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي .

يعد مالك بن نبي من أبرز المفكرين والفلاسفة الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية في القرن العشرين وهو رائد الرواية الجزائرية دون منازع لا تزال آراؤه وأبحاثه تشغل الناس من حيث قيمتها الفكرية وأبعادها الإنسانية خاصة تلك التي تناولت مظاهر التخلف وأضرار الاستعمار على الشعوب المتطلعة إلى الحرية[1].

الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية تحمل في تضاعيفها التاريخ المثقل بالتنوع والثراء وبالصراع والمقاومة، شكلت ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة وأثارت بذلك حولها جدلا كبيرا بين النقاد والدارسين، منهم من عدها رواية عربية باعتبار مضامينها الفكرية والاجتماعية، والكثرة عدوها رواية جزائرية مكتوبة باللغة الفرنسية، باعتبار أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي بها يكتسب الأدب هويته.

[1] ينظر: نفس الموقع

الفصل الأول:

الفضاء الروائي (المكان الزمان) في رواية "لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي"

المبحث الأول :بنية المكان

المبحث الثاني :بنية الزمان

تسيير خطوط الرواية وإن تعددت وتشابكت في مكان يكون اتساعه أو ضيقه وفق تنوع الأحداث وتواليها ومن المألوف أن تعدد الأمكنة، كما يتعدد المكان في الرواية يتعدد الزمان بحيث يستغرق في بعض الروايات حياة الشخصية المحورية كلها، وعلينا أن نحمل دراسة المكان أو الزمان في الرواية، فربما يتضمن كلاهما تفسيرا لكثير من الأحداث فيها وكشف شخصياتها، يقول جهاد عطا تعيسة " الزمان والمكان الروائيان متعايناان ومترابطان فيما بينهما من جهة ومع جملة عناصر البنية الروائية من جهة أخرى[1].

حيث تشخيص المكان في الرواية هو الذي يجعل أحداثها بالنسبة للقارئ شيئا محتمل الوقوع، بمعنى يوهم بواقعيتها. إنه يقوم بالدور الذي يقوم به الديكور والشخصية في المسرح، وطبيعي أن أي حدث لا يمكن أن تتصور وقوعه إلا ضمن إطار مكاني معين.[2]

- **المكان:**

تعددت الأمكنة التي تجري فيها أحداث رواية لبيك حج الفقراء وتنوعت ولم تقتصر أحداثها على مكان واحد بل عدة أمكنة، ويمكننا دراسة هذه الأماكن البارزة في تصوير الأحداث والمرتبة بالشخصيات من خلال (الأماكن المغلقة الأماكن المفتوحة).

أ- **الأماكن المغلقة:**

- **البيت:**

وهو المكان المغلق الذي تولد فيه، والبيت مكان للراحة والدفء أنه كما قيل مرارا كوننا الأول[3]. ويتجسد البطل إبراهيم في رواية لبيك" ويمثل نموذجا للمكان الجغرافي المغلق، كما

[1] ينظر: تعيسة جهاد عطا: في مشكلات السرد الروائي،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001، ص24.

[2] ننظر: حميد الحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الطبعة الثالثة ، 2000، ص 45.

[3] ينظر: غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 2، 1984، ص36،

يمثل له الماضي بكل ما يحتوي به من ذكريات أمه وأبيه، هذا البيت الذي يجمعه مع عائلته ويمنحه شعورا بالراحة والطمأنينة، كانت حياتهما ميسورة الحال، كفلها تقوى وانتظام في هذا البيت المقابل الذي يقطنه العم محمد. وفي هذا البيت بنفسه كان إبراهيم قد تزوج لكنه طرد منه لأنه لم يعد مرغوبا فيه بسبب سلوكه.[1]

ومن هنا يسترجع الراوي على لسان إبراهيم ذاكرته إلى الوراء ليعود إلى ذلك الماضي الذي قضاه برفقة عائلته في البيت.

– وقد أصبح هذا البيت فيما بعد مرتبطا بذكريات تثبر الحزن والألم في نفسية البطل إبراهيم وخاصة بعد توبته وأداءه فريضة الحج ونجد هذا جليا في الرواية، البيت الذي طرد منه لم يعد مرغوبا فيه بسبب سوء سلوكه إذ أنه سكيرا وقد وقع له حادث عجل بإخراجه من البيت وذلك عندما عاد كعادته في آخر الليل، فتفاجأت به إحدى بنات الجيران كانت قد خرجت قبل الفجر تطلب فأل خير وهو يتسلل في العتمة فصرخت وجمعت عليه الجيران أيقظ الصراخ الجيران والجارات فهرعوا باتجاه الصوت .....تقدم معتذرا لكن الجيران كانوا قد أصدروا حكمهم ورأو انه قد تمادى كثيرا وحددوا أجلا للعم محمد لرحيل إبراهيم الذي أمتثل للحكم وغادر البيت.[2]

– كما أشار الراوي إلى بيت العم محمد صديق العائلة والجار الوفي لإبراهيم الذي كان يفتح باب منزله لمساعدة جارة وبعد دقائق فتح باب المنزل فظهر شخصا مرتديا لباس أبيض تاركا خلفه صفق الباب نصف مفتوح واتجه بخطى صغيرة نحو السكير الذي كان يغني لمساعدته.[3]

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء" تر زيدان خوليف، دار الفكر البرامكة دمشق سوريا، ط1، 2009، ص45.

[2] المصدر نفسه، ص79.

[3] المصدر نفسه، ص79.

- **الحانة:**

مكان شرب الخمر وتجسد هذا المكان في الرواية، عندما تأثر إبراهيم السكير بالجو الاحتفالي البهيج الذي أقيم للحجاج أثناء مغادرتهم بيوتهم والتوجه إلى البقاع المقدسة، " أدخله هذا الحديث في جو من الخشوع والرهبة وجعلته ينهر بشدة رفيقه الذي جاء يعرض عليه كأسا إضافية في الحانة القريبة" إذ نتره رفيقه الذي كان معه عندما جره بيده مكركرا باستهزاء وهو يحاول أن يأخذه إلى حانة أخرى.[1]

الدكان:

يرتبط هذا المكان بشخصية إبراهيم البطل كان الدكان مصدر رزقه يبيع فيه الفحم في النهار وفي الليل يتخذ منه مأوى يبيت فيه بعد أن طلق زوجته، وطرد من جيرانه لأنه مطلق وسكير، كان يعود كل يوم ثملا فيفتح بابه العم محمد ليدخله "ليحفظك الله ادخل، ادخل مخاطبا السكير وهو يمد يده إليه لكي يساعده على تجاوز العتبة(...) كان إبراهيم يتوسط المكان الذي كان دكان للفحم، وكانت تتدلى خيوط العنكبوت من خشب السقف الذي لا يمكن التعرف من خلاله على طبقة كلس الجير الممسوحة لكثرة تراكم غبار الفحم الذي صبغ المكان هناك في الداخل[2].

مالك بن نبي من خلال هذا المقطع يصف لنا بيت السكير فما هو إلا عبارة عن دكان فحم.

وعندما غادر إبراهيم لأداء فريضة الحج ترك هذا المكان لصديقه أما المحل فقد حلت مشكلته. فالمدير الجديد الآن يداخله أريد أن أتركه لذلك المسكين الذي ينام فيه الآن. يجلب له الحظ إن شاء الله[3].

---

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص38.

[2] المصدر نفسه، ص35.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص60.

ب– الأماكن المفتوحة:

المكان المفتوح هو مكان عام ومشاع للجميع وتكون دلالته مقترنة بالحرية والسعادة والفرح والحالة النفسية المستقرة.[1]

ومن بين الأماكن التي كان لها حضور في رواية مالك بن نبي مايلي:

- **المدينة:**

هي مجموعة من المسافات لها أبعادها الاجتماعية والتنفسية والفكرية والسياسية[2].

تدور أحداث هذه الرواية في مدينة عنابة الجزائرية إبان الحقبة الاستعمارية في أحد أحيائها الشعبية، ابن نبي وضح لنا الأجواء التي يعيشها الإنسان الجزائري في مدينة عنابة.

- ويتحدث الكتاب (الراوي) عن مدينة عنابة حديث العارف بها وبعادات أهلها في الاحتفال بموسم الحج إن حجيج القطاع القسنطيني القادمين إلى عنابة ليستقبلوا الباخرة، كانوا عندما يمر القطار خلال هذا الأريج يشعرون بأنه شجرة من روح الجنة وريحانها، وبشرى بالرحمات لعبادة المخلصين[3]،

- وتتجلى مشاركة أهل المدينة للحجيج في ابتهاجهم لهذه المناسبة في العديد من المظاهر وأولها التجمهر في أماكن وصولهم بمحطة القطار وإظهار الشاشة لهم والهتاف معهم بعبارة لبيك اللهم لبيك "إن عنابة كانت تعيش في عرس وكانت تستقبل الحجيج الوافدين بالقطارات والذين كانت بواخرهم قد أرسلت فينشرون في المدينة للتزود بالزاد الذي يكفيهم للرحلة أو الصلاة للمسجد[4].

---

[1] ينظر: بان البنّا، الفواعل السردية (لدراسة في الرواية الإسلامية المعاصرة)،عالم الكتب الحديث إيربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2009، ص30.

[2] ينظر: الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في رواية نجيب الكيلاني عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع أربد، الأردن، ط1، 2010، ص257.

[3] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص29.

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص29.

وتشارك في هذه المظاهر كل الفئات من أهل المدينة، كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم، نقيهم وفاسدهم نجد إبراهيم بطل الرواية واقفا مع الجمهور في الساحة يتفرج على وصول الحجاج، في حالة سكر متقدمة وقد أثرت فيه هتافات الناس والتلبية، تأثيرا قويا، وأدخلته في جو من الخشوع والرهبة جعلته ينهر بشدة رفيقه الذي جاء يعرض عليه كأس إضافية " أتظنني كافر مثلك ؟ أنت الذي لا تعرف شيئا عن دينك؟ لقد حفظت الستين حزبا في حين أنك لا تحفظ ما يكفي لتأدية صلاتك."[1]

- **المسجد:**

هو المكان الذي تسمو فيه الروح، تؤدى فيه شعائر الإسلام فتطمئن فيه النفس وتحس بالأمان، ويعطي مالك بن نبي المسجد دوره فيشارك في الأحداث ويؤثر في الشخصيات، حيث يلجأ إليه العم محمد لأداء صلاته كل يوم فيه، وأذكر المسجد في أكثر من موضع " ارتفع صوت آذان الفجر الذي لا يتذكر إبراهيم أنه سمعه منذ زمن بعيد، ووجد نفسه يردد مع المؤذن حي على الفلاح، حي على الفلاح "فجأة انطلق صوت المؤذن الفجر الذي اخترق سكون الذي يلف المدينة النائمة ....سمعه كمن أيقظه من نوم عميق لينادي إلى الصلاة[2].

- فقصد المسجد كأنها كانت هناك قوة خفية تدفع به نحوه وعند باب المسجد كأن تلك القوة نفسها كانت ترده إلى الخلف، ونذكر انه أنه لا يمكنه دخول المسجد دون أن يكون طاهر البدن والثوب " تردد إبراهيم لحظة في الخارج، ثم إتجه بعقوبه نحو الشمال بإتجاه المسجد التي لاحت له منارته السامقة (...)

ولكنه لم يجرؤ على تخطي عتبة باب المسجد، حيث تناهت إلى مسامعه همسة عادة ما تسمع عند أبواب المساجد في أوقات الصلاة، تملكه من إحساس بالضيق شله ومتعه من

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص38.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص51.

تخطي الباب وكأن قوة ما تدفعه إلى الوراء إنه يعرف أن هذه القوة التي تمنع كل مسلم، من تجاوز عتبة المسجد إن لم يكن على طهارة.[1]

ووردت لفظة مسجد في رواية " لبيك حج الفقراء" لبين لنا مالك بن نبي المجتمع العنابي مجتمع مسلم متلزم بصلاة ودينه، والمسجد أرقى مكان في المدينة.

مكة:

هي مدينة مقدسة لدى المسلمين، فيها المسجد الحرام والعصبة التي تعد قبلة المسلمين في صلاتهم.

–وردت لفظة مكة في الرواية إلا أنها لم تكن واضحة ولم يقدم لها أي وصف بسيط ومن خلال توظيفها قصد بها مالك بن نبي البعد الديني الذي تحمله، ومكانتها المرموقة في نفوس المسلمين، فهي تمثل المكان المقدس الذي يلتهف المؤمنون للذهاب إليه "كم من نية مبرورة تتلاشي، وأكثر من أمنية تنسى أمام فكرة السعي تحت شمس مكة، ينبغي الإحساس بالنداء الحقيقي للحج النداء الذي لا يقام كي يلبي بقوة لا تقهر إن في الشتاء وفي الصيف[2].

– البحر (الميناء الباخرة):

البحر من أنواع النعم المسخرة التي تدل على عظمة الخالق يمثل للإنسان منبع الراحة والطمأنينة.

تجسدت كلمة البحر أو الباخرة في الرواية وهذا البحر كان الطريق المؤدي بين مدينة عنابة ومدينة جدة وذلك عندما قرر البطل إبراهيم في لحظة الذهاب إلى الحج برفقة الحجاج عن طريق الباخرة التي تمر على ميناء عنابة والباخرة تمثل ذلك المكان أو المركب الذي انتقل إليه الحجاج بعد أن كانوا يقيمون بين أهلهم حيث يتركون متاجرهم وخيامهم وينفصلون

[1]ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص 53.

[2]ينظر: المصدر نفسه، ص28.

عن عائلاتهم للالتحاق بالرحلة المبرورة يقول الراوي على لسان إبراهيم " أنا وجماعتي ركبنا من الجزائر العاصمة ولقد اتخذنا مكانا خاصا بنا على المركب"[1].

- كان البحر والباخرة مكان يحس فيه الحجاج بالراحة " عندما أرخى الليل سدوله كان إبراهيم لا يزال مع سطح المركب رفقة الحجاج الذين كانوا يتمتعون بنسيم عرض البحر العليل ...كان المركب قد أبحر في عرض البحر [2].

- **الشارع:**

الشارع مكان لا حدود له ينفتح على العالم الخارجي مما يسمح بتنقل الشخصيات بالحرية التامة.

وردت لفظة شارع في الرواية في مواضع مختلفة مثلا قول "الأزقة التي كانت تعج بالناس في الصباح أمست الآن خالية وانطفأت أنوار المتاجر الواحدة تلو الأخرى كما تنطفئ أنوار الفوانيس عرس قد انتهى وقد لاح القمر سابحا أشعته بين الأسطح المتقاربة[3].

من خلال هذا المقطع يصف لنا الكاتب أحد الأحياء الشعبية لمدينة عنابة وذلك الشارع عندما يكون فارغا ليلا يسوده الهدوء.

فالشوارع والأحياء في الرواية ترتبط أشد ارتباط بالشخصيات وخاصة البطل إبراهيم عندما سرد يومياته التي تدور في الشارع لقد أزعج صوته الهدوء الذي كان يسود على الشارع وفجأة فتحت نافذة مشربية المنزل المقابل حيث لاح خيال شخص تحت ضوء الستار المشدود والمصاريف المدفوعة[4].

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء، ص83.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص92.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص31 .

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص32.

- بما يضيف الكاتب واصفا حالته في ذلك الوقت من عودة إبراهيم إلى بيته " كان وميض مصباح الشارع الضعيف كافيا ليضيء الظل المتمايل للسكير[1].

2/ الزمان (الزمن):

الزمن أو ما يسمى بالزمن الروائي، إن الزمن الروائي باعتباره عملا أدبيا أداته الوحيدة هي اللغة يبدأ بكلمة وينتهي بكلمة وبين كلمة البداية وكلمة النهاية يدور الزمن الروائي أما قبل كلمة البداية وبعد كلمة النهاية فليس للزمن الروائي وجود[2].

والزمن عنصر أساسي في النص السردي والرواية وما هي إلا تركيبة معقدة من قيم الزمن.

- ستحاول دراسة الزمن وفضل رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي، لأنه كغيره من الروائيين لا يمنكه الاستغناء عن هذه البنية من استرجاع واستباق والمدة الزمنية من خلال مسومين هما: تسريع السرد (الخلاصة. الحذف)، وإبطاء السرد (المشهد، الوقفة).

- الترتيب (المفارقات الزمنية):

هذه التقنية لا تتقيد بالتابع في الأحداث خلال يمكن أن تكون في الماضي أو المستقبل وحصرت نمطها بمظهرين هما الاسترجاع والاستباق.

أ-الاستباق:

الاستباق تقنية تمهد وتوطئ لما سيأتي أو قد يكون إعلانا عن إشارة أو أنه يوجه القارئ إلى متابعة تطور شخصية ما أو يمنح أهمية ما قصد السبق إليه[3].

---

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء، ص33.

[2]ينظر: الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في رواية نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث والتوزيع أربد، الأردن، الطبعة الأولى، 2010، ص41.

[3]ينظر: ضال الشيمالي الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية)، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، ط1، 2006، ص169.

ومن أمثلة الاستباقات في الرواية نجد "لقد حلمت بالكعبة شيئا فشيئا بدأ حلمه يتضح لقد رأى نفسه في لباس الإحرام، اللباس الذي يرتديه الحجاج خلال أدائه لتلك المناسك[1].

فالاستباق هنا جاء عبارة فالاستباق هنا جاء عبارة عن تصريح من البطل ممهدا فيه كما سيحدث في المستقبل.

وفي موضوع آخر كان إبراهيم يرى نفسه برفقة الحجيج الذي سيبحر مركبهم صباح هذا اليوم قبل منتصف النهار كما سمع ذلك خلال جولته البارحة عندما كان برفقة جماعته[2].

فالسارد هنا يلخص مجموعة من الحوادث التي ستقع في المستقبل القريب، حيث قطع الحكي الأول وخرج في إطاره ليخبر القارئ بما سيقع في المستقبل لإبراهيم السكير.

ومن بين الإستباقات نجد أيضا:

" لكنه بذل جهد ليكبح قزة شعوره وكان يريد أن يطلق العنان لروحه التي كانت تتمسك بدرب حلمه كما يرى بين جفنيه وكان خارج مرفأ عنابة والمركب يعج بتفاهات الحجيج الملبية لدعوة الحج[3].

من خلال هذا يستبق السارد الهيئة التي سيكون عليها ابراهيم ويتقدم وتتابع الأحداث في الرواية تحقق تأكد الاستباق الذي أشار إليه السارد "أجل ياعمي محمد. لقد جئت إليك في هذا الوقت غير المألوف لأنني مستعجل إنها السادسة، وأنا أريد أن أذهب مع الحجاج الذين سيغادرون اليوم قبل الظهر مهما كلفني الأمر[4].

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص39.

[2] المصدر نفسه"، ص 39.

[3] المصدر نفسه ص40.

[4] المصدر نفسه ص58.

- وهذا تحقيق للاستباق السابق إذ يحقق إبراهيم حلمه في تغيير نفسه وتطهيرها والعودة لطريق الصواب والانتهاء بأدائه لركن الحج الإيمانية جسدت فكر مالك بن نبي في تبيان الأسس التي من المفروض أن يقوم عليها المجتمع المسلم.

ب- الاسترجاع والاستذكار:

يعد الإسترجاع من أكثر التقنيات الزمنية السردية حضورا وتجليا في النص الروائي، فهو ذاكرة النص ومن خلاله يتحايل الراوي على تسلسل الزمن السردي، إذ يتقطع زمن السرد الحاضر ويستدعي الماضي بجميع مراحله ويوظفه في الحاضر السردي فيصبح جزءا لا يتجزأ من نسجه[1].

كما يعد من أهم العناصر السردية التي استفادت منها الرواية واستطاعت من خلاله أن تتلاعب بالزمن بين الإسترجاعات المتواجدة في رواية لبيك حج الفقراء نذكر مايلي:

" فتذكر جدته العجوز التي كانت تسحره بقصدها الرائعة، وذكريات عمر ذهبي تطربه، والحنين يحتاجه إلى ماضيه العائلي إلى والده وإلى طفولته[2].

لجأ الراوي إلى هذا الإسترجاع على لسان إبراهيم متذكرا به جزءا كبيرا وهاما من ماضيه فتسلل إلى قلبه إحساس بالخطأ بسبب وجوه في محل لفحام وعلى فراش الحقير.

في سياق آخر تذكر رفيقه، كان من عاداته عندما يرجع في دورية أن يرقده في المتجر هذا إن لم يستلق مصروعا بالخمر على حافة مجرى الماء[3].

عاد إبراهيم البطل بذاكرته إلى تذكر رفيقه الذي جاء معه مخمورا ليلة البارحة ولم يقو على اجتياز عتبة متجر فاستلقى على مدخله، وقد ملأ شخيره غرفة إبراهيم الذي لم يعد قادرا على التلذذ بحلم اليقظة.

---

[1] ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن والشخصية)، مركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2009، ص193.

[2] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص42.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص43.

ونجد في موضع آخر بأن البطل إبراهيم يرجع بذاكرته إلى الوراء ليحكى جزاءا مهما من ماضيه " مرت بخاطره ذكرى رسمت على وجهه إبسامته كان مشهدا مضحكا بسبب رحيله، من المنزل العائيلي الذي كان يقيم فيه رغما عن كل ساكنيه عدا العم محمد، لم يتقبل الجيران أن بينهم مطلق وسكير ولكنهم احتملوه لأنه كان صاحب المنزل وأيضا لأن العم محمد كبير البيت كان يدافع عنه احتراما لذكرى والديه، لقد كان (رقوق القلوب) أي لا يحبه أحدا باللهجة المحلية كان جيرانه يديرون وجوههم عند لقائه، وكانت جاراته يختفين عند دخوله وخروجه[1]

نلاحظ أن المقطع يقدم لنا بعضا مما كان عليه إبراهيم من سكر وانحراف هذا السلوك السيئ الذي أدى به إلى الطرد من طرف الجيران وهذه الإسترجاعات المتواجدة في الرواية والتي ذكرنا منها أمثلة لها دور مهم في تقديم معلومات تخص الشخصية الروائية وبالأخص شخصية البطل "إبراهيم".

المدة:

تحليل مدة النص القصصي تتمثل في ضبط العلاقة بين زمن الحكاية والذي يقاس بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات وطول النص القصصي أي السرد الذي يقاس بالأسطر والصفحات والفقرات والجمل.

وقد اقترح جيرار جينيت " أن تدرس المدة من خلال تقنيات أربعة وهي الخلاصة، الحذف، المشهد، الوقفة لأن إشتغال هذه التقنيات يبرز من خلال تأثيرها في تحديد سرعة السرد وهو مختلف من تقنية إلى أخرى[2].

وسنقوم بدراستها وفق مستويين:

- تسريع السرد

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص77.

[2] ينظر جيرار جينيث، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ترجمة محمد معتصم والآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط2، 1997، ص108.

- تبطئة السرد

أ-تسريع السرد:

إختصار للزمن الحقيقي في عبارة أو جملة أو إشارة توحي بأن زمن ما قد أنجز وتم تجاوزه لسبب أو لآخر ويشمل تقنيتي الخلاصة والحذف، حيث مقطع صغير من الحكاية يغطي فترة زمنية طويلة من الحكاية.

الخلاصة: تعمل الخلاصة على تسريع عملية السرد فهي تعتمد على سرد أحداث ووقائع يفترض انها جرت أو كلمات قليلة دون التعرض للتفاصيل[1].

يلجأ الراوي إلى هذه التقنية ليتخطى الفترات الزمنية غير المؤثرة في حياة الشخصية أو التي لا تقع فيها أحداث مهمة بالنسبة للقصة وقد يلجأ اليها أيضا حينما يعرض موجزا تعريف بحياة شخصية ما تظهر في القصة.

ومن بين الأمثلة الواردة في رواية "لبيك"، تلخيص فترة من فترات حياة الطفل هادي " كان والده يذهب كل صباح إلى المدينة أو مزارع الكروم المجاورة للعمل، أما والدته فقد كانت معه ترعاه وتحرس الثلاث أو الأربع دجاجات (...) لكن أمي ماتت وباع أبي الدجاجات لأن بيضها كان يسرق من الزريبة، ثم قص عليهم لحاق أبيه بأمه بعد وقت قصير وعندما مات والده ظل هادي طفل متسول في البداية عندما كنت صغيرا كان أحد أصدقائي يترك لي علبة مسح الأحذية تركتها لأخي الأصغر مني سنا(...)[2].

هذه الخلاصة تكشف لنا أحداث طويلة تتعلق بحياة الطفل هادي المتشرد الذي بقتاد مهنة مسح الأحذية.

كما نلمس الخلاصة أيضا في تلخيص الكتاب على لسان إبراهيم حياته الزوجية مع زوجته زهرة التي انتهت بالطلاق "كانت تعاني منذ مدة من سلوك إبراهيم غير السوي الذي

[1] يينظر: حميد الحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الطبعة الثالثة، 2000، ص36.

[2] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص46.

كان يعذبها (...)، فلسنوات كانت مع "الخزانات" تجدد أملها، كان لزهرة عصفور أصبح رفيقها يشعرها بالراحة والرفقة عند سماع زقزقته والنظر إليه أحس إبراهيم بأن زوجته لم تعيره الاهتمام مثل العصفور وأصبح محتقرا من قبلها، فانقض على القفص ألقى به في صحن البيت ....فأطلقت زهرة صرخة ألم وهبطت من السلالم مسرعة ....غير أنه لم تصعد مرة أخرى ولم يرها إبراهيم من ذلك اليوم إلا عند القاضي الذي أعلن طلاقه منها[1].

من خلال هذه القصة فالسارد يحكي ما حدث في سنوات عديدة بشكل سريع عن حياة زهرة ومعاناتها مع زوجها إبراهيم والتي انتهت بالطلاق بعد أن قتل لها عصفورها الذي كان مؤنسا لها في وحدتها.

الحذف: يعرف الحذف بأنه تقنية زمنية تقضي بإسقاط فترة طويلة في زمن القصة وعدم التطرق لما جرى فيها من واقع وأحداث[2].

كما يعرفه حميد حميداني بأنه تجاوز بعض المراحل من القصة دون الإشارة بشيء إليها ويكتفي عادة بالقول[3].

ومن أمثلة الحذف الواردة في الرواية "ابتلع إبراهيم ريقه، وكأنه جرعة من المرارة يصطحبها شعور بالخجل والألم، لم يعهدهما منذ زمن طويل[4].

هذا إسقاط الراوي لمدة زمنية معينة لم يذكر منها ما جرى في المدة التي اختفى فيها شعور إبراهيم بالخجل والألم بالضبط لعدم احتواء هذه الفترة الزمنية على أحداث تستوجب الوقوف عندها فقد صرف خلالها الراوي نظره عن متابعة الأحداث التي جرت في هذا الزمن الطويل.

---

[1] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص47.

[2] ينظر: حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، ص153.

[3] ينظر: حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص7.

[4] ينظر: مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ص44.

وفي مثال آخر: "إن التقويم القمري يجعل الأعياد والتقاليد الدينية الإسلامية تتعاقب منذ ثلاثة عشرة قرنا على مختلف مراحل السنة[1]

حذف الروائي كثيرا من الأحداث التي كان من الممكن أن تقع خلاله السنوات الطويلة لكونها أحداث لا جديد فيها يعني ما هو مألوف عليه في الأعياد والتقاليد الدينية لداعي التفصيل أكثر.

لم يستعمل الحذف في هذه الرواية بكثرة.

1- إبطاء السرد:

وهو الحركة المضادة لتشريع السرد أي إبطاء السرد وتعطيل تسارعه بالتبطئ أو حتى الإيقاف ويكون من خلال تقنيتين تقومان بهذه الحركة وهما الوقفة (الوصفية) والمشهد (الحواري)[2].

- **الوقفة: Pause**

هي ما يحدث في التوقفات وتعليق السرد بسبب لجوء السارد إلى الوصف والخواطر والتأملات[3]

ونرصد هذه التقنية بكثير في رواية "لبيك" سواء في وصف الشخصيات أو رصد الأماكن وقد جعل الراوي منها سبيلا لتزودنا بمعلومات عن الشخصيات أو عن الأمكنة التي تدور الأحداث فوق مسرحها.

لتحتوي على مجموعة من الوقفات الوصفية: نذكر منها كان شعره أشعث ورجلاه حافيتين، يرتدي سروالا كثرت ثقوبه كغالبيه أطفال بونة[4].

---

[1] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء ص 28.

[2] ينظر: نضال الشيمالي الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، الطبعة الأولى، 2006، ص177.

[3] ينظر: محمد بوعزة، تحليل النّص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010، ص96.

[4] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص76.

في هذا السياق يصف لنا الراوي الطفل هادي ذلك الطفل اليتيم المتمرد الطائش الذي يمثل ذلك الفقر المتقع الذي تعيشه الأسرة الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي وبمجرد البدء في تحديد صفاته توقف التطور الخطي لسير الأحداث إلى الأمام.

كمثال آخر " منظر الرجل الذي وصلت كلماته المؤلمة إلى عنان السماء، كان يشبه بدو الجنوب أسمر البشرة، ممشوق القوام ومفتول العضلات يحيط بوجهه الجميل والممتلء رجولة لحية سوداء كان حافي القدمين

إبهامه مبتعدة عن أصابعه الأخرى، كما هو حال جميع مشاة الصحراء، كانت بيده عصا الراعي ارتسمت على وجهه صور الرقة والتعب واليأس[1].

فالراوي هنا نقل لنا صورة الرجل الأسمر الذي كان يلتهف للذهاب إلى الحج لكنه منع من ذلك لأنه لم يستوف الشروط، والأحداث هنا كانت تسير إلى الأمام إلا أن السارد توقف فجأة، ولجأ إلى وصف الشخصية التي لم تكن معروفة. كما يصف لنا الراوي بيت السكير إبراهيم " وكان تدلي خيوط العنكبوت من خشب السقف الذي لا يمكن التعرف من خلاله على طبقة كلس الجير الممسوحة لكثرة تراكم غبار الفحم الذي صبغ المكان هناك في الداخل وفي ركن منه توجد كومة فحم بجانبها أكياس مملوءة لا تفتح بعد. أما غربال وميزان الفحم، فقد أكملا تأثيث هذا الجانب من المحل، وفي الجانب الآخر وضع صندوق فوقه الشمعة التي لا تكاد تضيئ سريرا حقيرا وهو المتاع الشخصي الوحيد في هذا المتجر والذي بمثل حجرة نومه أيضا[2].

من خلال هذا المقطع أعطى لنا الراوي صورة مصغرة عن الحالة التي كان يعيشها إبراهيم في هذا الكوخ وحالته البائسة المزرية.

[1] مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص90.

[2] المصدر نفسه، ص 34.

- **المشهد:**

في المشهد تتضح الشخصيات وهي تتحرك وتمشي لهذا يقوم المشهد أساسا على الحوار المعبر عنه لغويا والموزع إلى ردود متناوبة[1].

ونستطيع أن نلمس هذه التقنية بشكل كبير في رواية "لبيك" فقد كانت الحوارات في مجملها تأتي من خلال البطل إبراهيم الذي يمثل الشخصية المحورية والطرف المشترك بين شخصيات الرواية وخير مثال على ذلك: الحوار الذي دار بين إبراهيم السكير والعم محمد ذلك الشيخ النقي الطاهر الأصيل ذو اللحية البيضاء الذي كان يحمل السبحة دائما: والذي يقطع صلاته في جوف الليل ليفتح الباب لإبراهيم السكير الذي أزعج الجيران بصراخه فينهره عن الضجيج الذي أحدثه والناس نيام بقوله " ماذا بعد يا إبراهيم؟ مرة أخرى ثملا..... صمت الرجل الثمل فجأة لدى رؤية مخاطبه الذي كان قد ألقى عليه هذه الكلمات وهمهم بصوت خافت وقال شيء يشبه الاعتذار وصل بعمل إلى شفتيه، آسف عمي محمد إنه مكتوب على الجبين، والله أنه مكتوب، آسف، لن أقوم بأي إزعاج سأخلد إلى النوم.[2]

ومن المشاهد الحوارية المهمة التي وردت في الرواية فنجد أيضا:

المشهد الحواري الذي يبين تعبير إبراهيم بين عشية وضحاها إثر حلم رآه حين وجد نفسه يطوف بالكعبة فقرر في الصباح أن يغتسل ويلتحق بسرعة بالباخرة المتوجهة إلى (جدة) على العاشرة صباحا وبعد غسله غمره إحساس بأنه تخلص من ضيق كان يعيش في داخله، فيفاجأ هذا الخبر العم محمد، ليتمكن من إقناعه فيما بعد وطلب منه المساعدة وكان لابد للشيخ محمد من وقت لكي يستوعب ما جاء يعرضه عليه جاره وإبن صديقه وراح يتفحص ملامحه يتأكد منه لأنه كان في وعيه الكامل وسأله في لهجة لا تخلو من الشك ولا من السخرية بكل تسامح.

لن أعود إلى ما كنت عليه يا عمي محمد!

[1] ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن والشخصية)، ص166.

[2] ينظر: مالك بن نبي، "رواية لبيك حج الفقرا"ء، ص32.

رد عليه الشيخ مازحا وهو يود معرفة الغرض من هذه الزيارة:

يا إبراهيم، هذه يمين سكير.

لكن إبراهيم رد عليه بحزم.

أبدا هذه المرة يمين حاج ! [1]

أعطى مالك بن نبي أهمية كبيرة لعنصر المشهد حيث نجده يحتل مساحات واسعة من روايته، فلا تكاد تخلو صفحه من صفحات النص الروائي من هذه الخاصية الأسلوبية.

هذه الرواية تقوم على اتحاد المكان الزمان . من حيث المكان فتدور أحداثها في أحد الأحياء الشعبية لمدينة عنابة .ثم تنتقل الشخصيات إلى الباخرة وتمر على مدينة عنابة لتحمل المسافرين إلى ميناء جدة لأداء فريضة الحج،بحيث كانت تتسارع الأحداث في الباخرة وتلتقي الأفكار وتتلاقح الثقافات بين الحجاج وربان السفينة وإبراهيم هنا إمتزج مع مجتمع جديد نقي يرغب في التطهير والتغيير، والتقى باالطفل هادي مع حجاج كثيرين يعيشون مغامرة السفر بالبحرية بمرورهم على تونس ثم مصر ثم وصولهم إلى جدة أين تنتهي الرواية. وليحقق إبراهيم حلمه في تغيير نفسه وتطهيرها من السواد يقرر الاستقرار بالمدينة المنورة بعد أن صار الحج واختار إلى نفسه عملا مناسبا هناك. ولما استقربه الحال راسل الشيخ محمد في عنابة الذي كلفه من بعده بتسوية إجراءات بيع الدار وإقترح عليه أن يتصل بزهرة طليقته التي أساء إليها كثيرا في الماضي بسكره،ويحاول أن يتوسط بينهما ليصلح ما أفسده الدهر ويحثها على الالتحاق به،هنا في المدينة المنورة ويقوم بتسديد مصاريف سفرها من ثمن بيع الدار إذا هي رغبت في ذلك. مكة والمدينة المنورة رمز للتطهير والتغيير والراحة فيهما لذلك ترك إبراهيم مدينته وإستقر هناك بحيث أرسل رسالة إلى زوجته زهرة يقول لها "أحس وكأني إنسان جديد وأرى من حولي عالما جديدا أريد العيش فيه إن شاءالله [2]"أما بالنسبة للبيت (بيت إبراهيم)وصفه بعبارات تدل على الحزن والقهر والسواد"كان إبراهيم وهو

[1] ينظر: المصدر نفسه، ص57.

[2] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص55.

واقف وسط الغرفة بقيمصه المدبوغ مع يديه بغبار الفحم يجسد الروح السوداء لهذا المكان المعتم[1]" بهذا الأسلوب الدقيق يصف لنا مالك بن نبي بيت السكير، إنه باختصار شديد وضع الجزائر الأسود".

من خلال دراستنا لهذه الرواية وتتبعنا لأحداثها وجدنا أنه تسير في زمن محدد، هو زمن الحج مع الفترة إلي أعقبته وبذلك يكون للزمان دلالته إذ ألقى بظلاله على أحداث الرواية من بدايتها إلى نهايتها.

[1] ينظر: المصدر السابق، ص35.

الفصل الثاني:

بنية الشخصية في رواية لبيك حج الفقراء

المبحث الأول: الشخصيات الرئيسية

المبحث الثاني: الشخصيات الثانوية

الشخصية:

هي العنصر الأدبي الذي يظهر ضمن عطاءات اللغة التي يغدوها الخيال للنصوص بالحدث بدور الصراع داخل اللعبة السردية العجيبة[1].

تتضمن الرواية شخصيات تدور حولها الأحداث، وتحرك الأحداث وهذه الشخصيات تكون شخصيات رئيسة محورية رئيسية تصنع الأحداث وتحدث الصراع فهي إما شريرة أو خيرة، وأيضا شخصيات ثانوية تستكمل بها الخلفية للأحداث دون أن يكون لها تأثير في سيرها أو نموها وفي دراستها للرواية، علينا أن نتعمق في فهم الشخصيات وتفسير تصرفاتها والكشف عن دوافعها النفسية وطباعها.

تجسدت في رواية "لبيك" شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية يمكن الكشف عنها من خلال تسلسل الأحداث وتحرك شخوصها يمكننا ذكرها فيما يلي:

الشخصيات الرئيسية:

وتعبير هي محور الرواية والركيزة الأساسية التي تلعب الدور الأكبر في العمل الروائي أي أنها شخصية مركزية تقوم بطولة الرواية وتتمثل في شخصية البطل إبراهيم.

إبراهيم:

تعتبر شخصية إبراهيم رئيسة في الرواية أكثر الشخصيات حظا لأنها سيطرت على إهتمام المؤلف، لعبت دورا بارزا وكبيرا في تحريك الأحداث، فهي شخصية مركزية، سياسية تدور حولها أحداث الرواية من بدايتها إلى نهايتها فإبراهيم هو سكير وفحام يعيش ليلة رهيبة حيث يقرر في لحظة حلم الذهاب إلى الحج لأداء فريضة الحج وصارو يدعونه الحجاج إبراهيم.

ونجد الروائي يعدد صفات البطل إبراهيم "كانت سمات وجهه تتميز بتلك الطاقة الخاصة التي تدل على إنحداره من هذا الوسط البرجوازي الإسلامي الذي يشتغل، والذي كان

[1] ينظر: عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد ، سلسة عالم المعرفة الكويت (د،ط)، 1998، ص87.

يعيش حالة من التقوى والفزاع والترف.....قد يكون في الثالثين من عمره لون بشرته الباهت الخاص بسكان مدن شمال إفريقيا يكشف عن أصوله الحضارية كان يرتدي مئزرا طويلا يصل إلى الكعب منتعلا حذاءا فماشيا ويضع فوق رأسه شاسية متآكلة وعليها دسم القرف[1]

من خلال وصف شخصية إبراهيم يريد الكاتب أن يصل إلى ذهن المتلقي فكرة معينة ربما طرح قضية من قضايا المجتمع الجزائري المتمثلة في دور الاستعمار الفرنسي أنذاك وكيف أن إبراهيم غلب عليه الإحساس بأه ينتمي إلى المجتمع الأوروبي، إذ كان سكيرا مخمورا طوال الوقت يعمل في بيع الفحم ترفضه زوجته "زهرة " وأهله المحيطون به بسبب سوء سلوكه هذا الرجل الذي لايستطيع أن يقاوم الخمر، هذه العجرفة ، التي يشترك فيها مع الذين يتعاطون الخمر[2]

ويتمثل إبراهيم بانحرافه وسلوكه وقسوته الجيل الذي احتك وعايش المجتمع الأوروبي، حيث كان في حيرة من أمره، فما تعلمه صغيرا وغاص في أعماقه لا يتناسب مع ما يطفو على السطح[3]، كان يعاني إبراهيم الفراغ الذي يعانيه كل امرئ غير مقتنع بعقيدته ومقوماته الأخلاقية لكنه استدرك الأمر وأدى فريضة الحج بعد حلم رآه في نومه حلما مدهشا أطار النوم من عينيه رغم سكره الشديد، رأى نفسه أنه يطوف بالكعبة الشريفة، ويلبس لباس الإحرام الذي يلبسه الحجاج "كان إبراهيم يرى نفسه برفقة الحجيج الذي سيبحر مركبهم صباح هذا اليوم قبل منتصف النهار كما سمع ذلك خلال جولته البارحة عندما كان برفقة جماعته[4].

ليتغير من إنسان سكير يرفضه المجتمع إلى إنسان يبحث عن التقرب إلى الله فيشق طريق الحج

---

[1] ينظر: مالك بن نبي ، رواية لبيك حج الفقراء، ص34.

[2] المصدر نفسه، ص32.

[3] ينظر: دار الفكر – آفاق معرفة متجددة https://darfikr.com/

[4] ينظر: مالك بن نبي ، رواية لبيك حج الفقراء، ص39.

إبراهيم يمثل صاحب المقام الأول في الحضور السردي وقد لعب دورا هاما في الرواية مقارنة بالشخصيات الأخرى.

يتغير بين عشية وضحاها إثر (حلم) رآه، حيث وجد نفسه يطوف بالكعبة، فقرر في الصباح أن يغتسل ويلتحق بسرعة بالباخرة المتوجهة إلى (جدة) على الساعة العاشرة صباحا، وبعد غسله غمره إحساس بأنه تخلص من ضيق كان يعيش في داخله...وفهم أنه كان يلعب دور شخص بغيض فرض عليه في مسرحية كومدية بذيئة لقد اتخذ إبراهيم قرارا خطيرا في تغيير حياته، ليتخلص من العبودية (الفحم)، والثقافة الدخيلة (الخمر) ويقرر ركوب التاريخ(الباخرة) للعودة إلى الأصول (الحج) والطهارة، وإذا كان هذا القرار يبدو للوهلة الأولى هروبا من الواقع إلا انه يحمل في طياته أيضا قرار التغيير والثورة على النفس والمحيط، ورفض الواقع المرير، لقد شعر إبراهيم أنه تخلص من الماضي عندما تأمل براءة وجه زوجته التي طلقته جراء انحرافه وهو يختلط مع وجه أمه المشرق والممتلئ بالرضا، حيث شكلا رمزا واحدا لطريق مضيء فتح أمامه فجأة، فأحس بأنه قد نفذ بجلده من إمبراطورية الظلام، حيث انتقل من عالم الظلام إلى عالم جديد نقي يرغب في التطهير.

الطفل "هادي":

لعبت شخصية الهادي دورا فعالا ومميزا في سير أحداث الرواية فالطفل هادي هو ذلك الطفل اليتيم الطائش المتشرد الذي قرر هو الآخر تغيير مسار حياته بالقيام بمغامرة عجيبة وهي الذهاب إلى الحج، فهادي تغيير مسار حياته بالقيام بمغامرة عجيبة وهي الذهاب إلى الحج فالهادي كان يعاني من فقدان الحنان فيشرد في الشارع يعمل ماسحا للأحذية، ينتقل في سفينة الحجاج كمسافر غير شرعي بعد مراهنته لأصدقاء له بأنه يستطيع أن يحج بيت الله الحرام، وقد وصف لنا الراوي هذا الطفل بقوله " كان شعره أشعث، ورجلاه حافيتين، يرتدي سروالا كثرت ثقوبه كغالبية أطفال بونة[1].

[1] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص76.

يمثل هادي الفقر الذي عرفته الأسرة الجزائرية إبان الحقبة الاستعمارية مما يدفع الأطفال إلى العمل في الأسواق من مسح الأحذية أو حمل الأمتعة الثقيلة في الأسواق ويتضح من خلال هذا القول "في البداية عندما كنت صغيرا كان أحد أصدقائي يترك لي علبة مسح الأحذية عندما كان يعمل عتالا في محطات القطار أو في الموانئ كنت امسح الأحذية في غيابه وأقسم معه الإيراد والطعام".[1]

إتخذ الولد قرار التخلص من التشرد والفقر واستطاع أن يختبئ في إحدى غرف الباخرة المتوجهة إلى الحج بعد ما تراهن مع أصدقائه الذين عاشوا التشرد والفقر حول ركوب الباخرة والذهاب إلى الحج فقال لهم متحديا " أنا أستطيع أن أذهب إلى الحج دون أن أدفع شيء، لكن المسكين إكتشفه أحد العمال وقرر معاقبته" هذا الشقي سوف يوضع في السجن حيث توجد فئران كبيرة ولن يخرج منه حتى العودة إلى بونة[2]

إلا أنه إبراهيم وبعض الحجيج تدخلوا لإنقاذه، ففرح الطفل لأنه حقق أمنيته وهي الذهاب إلى الحج ونشأت بين إبراهيم والولد علاقة أسرية وطيدة علمه أصول الدين من وضوء وصلاة وراحة يدله على فعل الخير

فالبطلان "إبراهيم الفحام" ، و" هادي ماسح الأحذية" يعملان عملا متشابها فإبراهيم الذي يبيع الفحم الأسود وهادي اليتيم الذي يعمل في مسح الأحذية بالملمع الأسود كلاهما يمثلان رمزا للإنحطاط الذي وصل إليه جيل إبراهيم وجيل هادي[3].

أما الطفل هادي فقد كان شعره أشعث، ورجلاه حافيتان، يرتدي سروالا كثرت ثقوبه كغالبية أطفال بونه

وهو يمثل ذلك الفقر المندفع الذي تعرفه الأسرة الجزائرية حيث تدفع الأطفال إلى العمل القهري خاصة الحمالة والأسواق والموانئ، ومسح الأحذية...)

[1] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص129

[2] ينظر المصدر نفسه، ص132، 96.

[3] ينظر: مقال ديوان لبيك.

لكن كانت للطفل هادي إرادة استطاع أن يتحدى بها رفاقه ويحقق أمنيته، إذ استطاع ركوب الباخرة والذهاب إلى الحج، وهكذا اتخذ هذا الولد قراره ليتخلص من اليتم والتشرد والفقر، لقد قرر الطفل تغيير حياته هو الآخر بعدم الانصياع للقهر والقبول به، وإنما باتخاذ أي قرار ولو الفرار في باخرة للحجاج نحو المجهول، فهادي الطفل الذي يحمل معه أمل العودة إلى أرض الوطن، ويواصل رغبة التغيير نحو الأفضل، لقد طهر نفسه ويده من مسح الأحذية، وطهر قلبه من أدران الثقافة الأوروبية، وتشبع بثقافة الأسرة مع إبراهيم.....إنه الأمل وكفى.

الشخصيات الثانوية:

شخصيات تابعة ومكملة للشخصية الرئيسية يستدعيها الكاتب كعوامل مساعدة من بين الشخصيات الثانوية البارزة في رواية لبيك حج الفقراء ما يلي:

العم محمد:

شخصية كان لها دور في تصعيد أحداث الرواية قدمها الكاتب كنموذج للأصالة المتجذرة في الأمة الجزائرية، حيث تتجسد فيها خصلة البساطة والروح والإنسانية النقية والعودة للجذور، هو ذلك الشيخ الطاهر التقي الأصيل، ذو اللحية البيضاء واللباس الأبيض الحامل للسبحة دائما والذي يقطع صلاته في جوف الليل ليفتح باب أمام إبراهيم السكير الجيدة، يسكن في نفس الحي الذي يسكن فيه البطل "إبراهيم" صديق العائلة الوفي والمخلص كان الشخص المقرب لإبراهيم، إذ كان بجانبه في كل الأحوال، إحتراما للصداقة التي تربطه بوالده ساعد البطل ووقف إلى جانبه عندما يكون سكيرا " أدخل نأدخل مخاطبا السكير وهو يمد يده إليه لكي يساعده على تجاوز العتبة[1].

[1] مالك بن نبي، رواية لبيك حج الفقراء، ص54

فالعم محمد كان بمثابة الأب الحنون الخائف على ولده ينصحه وينهاه كل ليلة يترك الخمر وعدم إزعاج الجيران، فيجيب إبراهيم قائلا آسف عمي محمد إنه مكتوب على الجبين والله أنه مكتوب آسف لن أقوم بأي إزعاج سأخلد إلى النوم[1].

بعد أن ضيع إبراهيم أمواله وأملاك العائلة في الخمر والترف وأراد أن يبيع البيت إلا أن العم محمد منعه من ذلك، كان شديد الحرص على بيت عائلة صديقه فالعم محمد يلجأ إليه إبراهيم عندما يريد الخوض في أمر فقد لجأ إليه عندما قرر الذهاب إلى الحج وطلب منه المساعدة ففرح إبراهيم كثيرا "أجل إن الله قوي قدير يهدي إلى الطريق من يشاء [2]، كما ساعده في ترتيبات الحج ودعاه إلى الغذاء دعوة تعبير عن تقدير واحترام " يجب أن تخرج من المنزل ككل الحجاج وليس كمن لا بيت له "[3]، ويخاطبه مبتسما قائلا يبدو عليك مظهر الحجاج فيك نفحة من نفحات الجنة"[4].

زهرة:

زوجة البطل إبراهيم شخصية مميزة بطابع إيجابي رغم الظروف القاسية التي عاشتها مع زوجها وما عانته من ويلاته وعربدا ته الليلية فقد عانت من سلوك إبراهيم غير السوي الذي كان يعذبها خاصة بعد إنتقال والديه إلى الرفيق الأعلى، وظلت صابرة على أمل أن تقع معجزة في حياتها التي تتألم منها كثيرا فكم من مرة كانت تنتقل إلى القبة لكي تشعل شمعة هناك على أمل أن ينتهي سبب معاناتها: فسوق إبراهيم.[5]

وكان لزهرة عصفور (كروان) أصبح مع مر الزمن رفيق لها تغني لتغريده وكانت كلما رأته ساكنا على أرجوحته تأتي لتكلمه فتعودت عليه وفهمت حركاته "كان يقول لها: "نعم"

[1] مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص33.

[2] المصدر نفسه، ص58.

[3] المصدر نفسه، ص66.

[4] المصدر نفسه، ص67.

[5] المصدر نفسه، ص47

عندما يخفض رأسه كانت أجوبته وزقزقته كافية لتشعرها بالرفقة خاصة عندما كانت تنتظر استيقاظ زوجها بعد الزوال أو عودته من الحانة.[1]

وذات يوم من أيام الربيع كان الجو رائعا، أطلق العصفور زقزقات تأثرت بها زهرة فراحت تشدو بأغنية شجية تهدئ روحها دائمة الحزن، فانشغلت معه إلى درجة أنه محتقر من قبل زوجته وانتابته الغيرة من العصفور فينقض على القفص ورمى به في ساحة البيت، فانطلقت زهرة صرخة ألم وهرعت مسرعة لتنقذه لكن العصفور لفظ آخر أنفاسه، فغضبت زهرة لموت رفيقها الوحيد وحزنت وخرجت من منزل زوجها دون عودة" وهبطت في السلالم مسرعة لتأخذ القفص، حيث لفظ العصفور آخر أنفاسه غير أنها لم تصعد مرة أخرى لم يرها إبراهيم منذ ذلك اليوم إلا مرة واحدة عند القاضي الذي أعلن طلاقها منه.[2]

لكن زهرة رغم طلاقها، قد ظلت وفية لزوجها، ولم تتزوج من جديد إكراما لذكرى حمويها الذين أوصياها بابنهما وهما على فراش الموت.

تظهر الزوجة بنموذج الزوجة المخلصة لزوجها، فقد ظلت تكن له الاحترام وتتمنى له الخير وتعامله بمحبة ومودة ولقد فرحت حينما علمت بخبر توبته وقراره الذهاب إلى الحج وبعثت له مع العجوز فاطمة بهدية هي عبارة عن سبحة احتفظت بها كذكرى من المرحومة أمه، ولقد تأثرت تأثرت تأثيرا كثيرا بهديتها، فدمعت عيناه من شدة التأثر، فسبحت أم إبراهيم تمثل بالنسبة إليها ذلك الرصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال فالمرأة من الدعائم الأساسية للأمة، والأمينة على أصالتها، فلذا الراوي اتخذها رمزا للمرأة الجزائرية الوفية والمخلصة وبين محافظتها على القيم والمبادئ الثقافية.

الحجاج:

من الشخصيات الثانوية التي تناولتها الرواية، تكشف الأخلاق المتأصلة في المسلمين وفي سكان عنابة وظهر دور الحجاج أو الحجيج في رواية "لبيك"، عندما صعد إبراهيم

[1] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص47.

[2] المصدر نفسه، ص48.

الباخرة للتوجه إلى الحج يلتقي بحجيج كثر وكان الحجاج يجتمعون ويشكلون جماعات يتناولون الوجبات ويقيمون الصلاة، وقد إنضم إبراهيم إلى جماعة حاج متقدم في السن "حيث جاء الرجل الذي وضع يده على إبراهيم، يطلب من إبراهيم أن ينظم إلى الجماعة الذي ينتمي إليها لقيم الصلاة معهم[1]. فيجتمع الحجاج بعضهم مع بعض من أجل الذكر الخاص بكل فرقة أو جماعة وقبل إبراهيم على الفور بعرض الحج.

أحس إبراهيم بالافلة بين رفقائه الذي شاركهم في طلب المغفرة ولقد أطلق عليه لقب الحاج وأعجب بهذا اللقب النبيل كما اختلط بالمغرب واختلط بالحجاج التونسيين ورأى بأنهم أكثر روحانية وبشاشة فكان يفضلهم على أهل المغرب الذين وجدهم منطوون قليلا، وهذا "بعد لقاء بعض منهم البارحة وهو يتجول في الممرات بين الحجاج الجدد[2].

كان الحجاج يجتمعون، وكان إبراهيم برفقتهم يبتسمون ويتبادلون الكلام، ويتناولون طعامهم، حيث يقدم كل منهم مئونته خاصة الحلويات التي إعتاد الحجاج حملها معهم" البقلاوة خاصة بالعائلات الغنية والمقروض لقاطن المدينة وللفقير، أما الرفيس فالريفي[3].

نشأت بين الحجاج روح الجماعة والأخوة والاحترام والتفاهم على اختلاف المبادئ ووجهات النظر فنشأت بين الحجاج روح الجماعة والأخوة والاحترام والتفاهم على اختلاف المبادئ ووجهات النظر فالإسلام يقوم على أسس التعايش بين فئات البشر مع اختلاف أعرافهم ولغاتهم وديانتهم ويرفض العزلة والانطواء فهم يمثلون الصورة الإنسانية للتمسك واتخاذ الأمة الإسلامية واستمروا على هذا الحال إلى أن اقتربوا من الأرض المقدسة بدأ الحجاج بالتحضيرات اللازمة بأداء الفريضة فمجموعة من الحجيج كانت تأخذ حماما، وأخرى

[1] ينظر: مالك بن نبي رواية لبيك حج الفقراء، ص82.

[2] المصدر نفسه، ص88.

[3] المصدر نفسه، ص102.

تغتسل وجميعهم كانوا بين من يقص شعره ويقص أظافره فقال إمامهم " يجب أن نذهب إلى الحمام لكي نرتدي لباس الإحرام فنحن داخلون إلى الأراضي المقدسة[1].

فاطمة:

كان لفاطمة دور وسيط داخل الرواية فهي شخصية بسيطة ثانوية، لكنها لمعت في تسلسل الأحداث.

العمة فاطمة زوجة العم محمد الجارة الوفية الطيبة الحنونة التي تعامل جيرانها معاملة حسنة، كانت عطوفة ورقيقة القلب والمشاعر وكان إبراهيم يحترمها ويقدرها ويناديها عمتي وهي بمثابة أمه، فرحت به كثيرا عند تركه للخمر وإتباعه الطريق السوي نادته إلى منزلها وقد ملأت الغرفة بالبخور وغمرتها فرحة عارمة لتوبة إبراهيم بعد أن أصبح "حاج" وخاطبته قائلة " لابد أن والديك سعيدان الآن يا سي إبراهيم[2].

فرح إبراهيم بمناداته "بسي إبراهيم" من قبل العمة فاطمة وانتابه شعور رائع فهذه الكلمة تدل على التقدير والاحترام وتطلق على الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة عالية ومحترمة بين الناس وأخذ يدها وقبلها قبلة إبن لأمه وهو لا يزال عند عتبة الغرفة التي استقبلته فيها ورد عليه قائلا، فليرحمهما الله يا عمتي فاطمة[3].

العمة فاطمة أعطت لإبراهيم قفة ممتلئة قائلة " لقد أصر كل الجيران على أن يهدوا لك هذه القفة" [4] كما سلمت له مسبحة أمه التي بعثتها له زوجته السابقة عند سماعها بخبر ذهابه إلى الحج، إذ اقتربت منه وهمست في أذنه قائلة" كانت هذه المسبحة لوالدتك فليرحمها الله، حافظت زهرة عليها بحرص وعندما علمت برحيلك أنك جدير بأن تحتفظ بها الآن"[5]

[1] مالك بن نبي، رواية لبيك حج الفقراء، ص 151.

[2] المصدر نفسه، ص68.

[3] المصدر نفسه، ص 69.

[4] المصدر نفسه، ص70.

[5] المصدر نفسه، ص71.

فرح البطل إبراهيم وابتسم وتأثر كثيرا بهديتها الثمينة التي كانت أغلى شيء بقي له من أمه، ابتسمت العمة فاطمة وبادلته نفس الشعور، رد عليها " أرجوك يا عمتي فاطمة أن تشكري زهرة بدلا عني لأنها أرسلت إلي بهذا التذكار في مثل هذا اليوم، أخبريها أنني سأدعو لها عندما أكون عند النبي وسأعود لكم جميعا[1]

وهناك شخصيات أخرى ثانوية لم تطل إلا بين الحينة والأخرى كأم إبراهيم، الربان، أصدقاء الطفل الهادي.

من خلال دراسة شخصيات الرواية يتبن لنا بضوح أن العم محمد والطفل الهادي وإبراهيم وزوجته زهرة يمثلون المجتمع الإسلامي بمختلف فئاته فالعم محمد يمثل الأصالة المتجذرة في الأمة، ويمثل إبراهيم بانحرافه وقسوته الجيل الذي احتك وعاش المجتمع الأوروبي حيث كان في حيرة من أمره فما تعلمه صغيرا وغاص في أعماقه لا يتناسب مع ما يطفو على السطح[2].

وفي نهاية هذا الفصل نجد أن مالك بن نبي كتب قصته التي ابتكر فيها شخصية ابراهيم ذي التقاسيم الجزائرية العنابية ،والذي استاثر بالقسط الأوفر من أحداث الرواية بحوالي الثلثين فإبراهيم قد عرف تدرجا في السلم الأخلاقي من "بوقرعة" إلى "سي" ابراهيم في نظر الخالة فاطمة زوجة الشيخ محمد إلى الحاج ابراهيم ،لكن ما يعرف عن هذه الشخصية أنها تنحدر من أصول محافظة وعريقة ، اذن فسلوكه الشاذ لا يعكس نسبه الكريم في نظر الكثير من الأسر العنابية فهو ملازم للسكر والعربدة بياض نهاره وسواد ليله، وفي لحظة غير عادية وبعد عودته من إحدى مغامراته الليلية صادف أن سمع أذان الفجر وكأنه يسمعه لأول مرة فأيقظ فيه مشاعر لا عهد له بها من قبل فانساق نحو جامع الباي واقفا أمام الباب يتحسس شعائر الصلاة عن كثب، إلى أن بدأ المصلون ينصرفون الواحد تلو الأخر ، فمنهم من تذكره ببعض النقود ظنا منهم أنه متسول يريد الصدقة لكنه تخلى عن هذه الصدقة لغيره

[1] مالك بن نبي، رواية لبيك حج الفقراء، ص72.

[2] دار الفكر – آفاق معرفة متجددة https://darfikr.com/.

ممن يمتهنون هذه الحرفة، ثم أسرع إبراهيم إلى أقرب حمام ،ليتوضأ ويتطهر وفي نيته حدث عظيم يفاجئ به الجميع ويشكل منعطفا مفصليا في أحداث الرواية ، قرر إبراهيم دون سابق إنذار الذهاب إلى الحج مع جموع الحجيج المتوجهين على متن السفينة نحو البقاع المقدسة، وقد تعاطف معه الكاتب كثيرا حيث سهل له إجراءات السفر في ظرف قياسي كما لوحظ على الكاتب توظيفه لبعض القصص القصيرة زائدة عن الحاجة كقصة البدوي التونسي الذي حاول أن يتسلق السفينة بكل ما أوتي من قوة ولكن الشرطة منعته من ذلك، أو الطفل هادي العنابي وقصته مع التسول ومسح الأحذية ومغامرته الأخيرة التي أوصلته إلى ظهر السفينة وجعلت منه واحدا من المتوجهين إلى البقاع المقدسة.

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن هذه القصة بمثابة شريط وثائقي يضاف إلى ذاكرة المدينة من خلال توبة إبراهيم ورحلته إلى البقاع المقدسة وقد شاءت أقدار الرواية أن تضع نهايتها بمجرد التحاق إبراهيم بالسفينة مخالفة بذلك إرادة الكاتب لأن ما حدث بعد انطلاق السفينة من ميناء عنابة لا يضيف أي شيء جديد يغير من مسار الرواية لاستنفاذ المادة القصصية الهزيلة التي راهن عليها الكاتب والتي تكاد تكون استهلكت كلها في مدينة عنابة تقريبا مما تسبب في شلل فاعليتها وصارت الحياة العائمة على ظهر السفينة ضربا من الاستسلام للتعب من طول مشقة السفر تتخللها أحيانا دردشة عابرة ، ولم يعد يحرك هذا الخلق سوى الحاجة إلى الطعام أو القيام بالصلوات المفروضة.

هذه الشخصيات لعبت دورا هاما في تسلسل الأحداث، وقد وظفها الكاتب ليس للتسلية وإنما تحمل في طياتها عبرة دينية وأخلاقية.

خـــاتمـــة

خاتمة:

الحمد لله الذي أعاننا على إتمام هذه الرسالة، وأرجو أن يكون علمنا هذا خالصا لوجه الله الكريم، وأن يكون خطوة في السير على المنهج الأدبي الصحيح .ومن خلال دراستنا لهذا الموضوع نستنتج أن المتمعن لفلسفة" مالك بن نبي في الحضارة والتجديد، يكتشف علما فكريا فلسفيا مليئا بالمفاهيم وغنيا بالتصورات، وفريدا في نوعه وجديدا في العديد من جوانبه، خاصة فيما يتعلق بالحضارة وعناصرها وشروطها وأطوارها، لأنه كان شاهد على عصر الانحطاط والتخلف الذي كانت تعيشه معظم البلاد العربية والإسلامية نتيجة سيطرة الاستعمار على العقول أولا ثم توجيه المجتمع المستعمر إلى ما يخدم مصالحه، مما دفع المفكر الجزائري للتوجه إلى تحليل الواقع وتقصي التاريخ ومراجعة وتفسير ونقد كل ما كتب عن الحضارة والبحث عن أسباب قيامها وسقوطها من أجل استئناف الإصلاح والتجديد والبناء الحضاري واسترجاع أمجاد الحضارة الإسلامية التي قادت العالم في وقت مضى، وبمنهج علمي استلهمه من إنتمائه الديني وتكوينه العلمي والتقني، الذي ميزه عن غيره من المفكرين إذ أنه سن القوانين والمبادئ التي يقوم عليها بنيان المجتمع وتنظم على أساسها علاقات الأفراد والقطاعات والمجتمع.

1- ساهمت رحلاته وتنقلاته للعمل أو طلب العلم في التعرف على الكثير من رواد الإصلاح في العالم العربي والغربي، وسمحت له أيضا الخصائص والمميزات المختلفة بين المجتمعات وأثرها في تكوينه الفكري.

2- تمكن مالك بن نبي من وضع إستراتجية للبناء الحضاري بعد أن أمضى ربع قرن في الدراسة والتحليل والاستنتاج.

3- كان يبحث عن القوانين والسنن التي تحكم الحركة الاجتماعية والحركة الإنسانية من أجل توجيه الإنسان إلى ما يخدمه ويخدم أمته.

4- أعطى بن نبي مفهوم جديد للحضارة من حيث أنها تقوم على الإنسان والتراب والزمن عند تفاعل هذه العناصر تتكون شبكة من العلاقات الاجتماعية ويهتم العامل الديني بتنظيم العلاقة بين هذه العناصر .

5- يرى بن نبي انه من واجبنا تأسيس المشروع الحضاري على أساس إنسان راق فاهم لأفكاره وثقافته ومستقل بها ، ويجب أن يعرف التقدم بأنه الالتزام بالهوية والسير وفق قيم حضارتنا ودیننا وثقافتنا.

6- لم يبتعد بن نبي في منهجه وأفكاره عن الإسلام بل شكل من الشريعة الإسلامية قاعدة لأفكاره وأسسا لمؤلفاته.

7- لم يكن بن نبي ضد الانفتاح على الشعوب الأخرى بل كان ضد الأفكار التي تعتقد أن نظريات وإيديولوجيات العالم العربي هي الحل لتدارك الحضارة وتحقيق التطور والتنمية في العالم العربي.

8- المشروع الحضاري يجب أن يصدر من أرض الأمة العقائدي والفكري والفني والأدبي لأن الحضارة تبيع أشيائها ولا تبيع نفسها.

9- ومن خلال دراستنا للرواية علما ان استنطاق البنى السردية المتمثلة أساسا في :الزمن، المكان الشخصية، وقد توصلنا إلى النتائج والخلاصات الآتية : تقديم الأحداث ويتم ذلك من خلال:

- تسريع زمن السرد بتخطي مسافات زمنية طويلة للرواية عن طريق الخلاصة والحذف أما الوقف والمشهد نجد الروائي يستعملها لتعطيل السرد
- أما الاستباق فكان مجرد توقعات لما ستؤول إليه الأحداث المستقبلية للشخصيات
- اعتمد الكاتب على الاسترجاع من اجل استدعاء ماضي الشخصية أو قصد تقديم شخصية جديدة في الرواية.

- تعدد الأماكن في رواية لبيك، بين الأماكن المغلقة والأماكن المفتوحة المسجد، البيت، المدينة الشارع، الحانة.
- المكان الروائي ليس الإطار الذي تجري فيه الأحداث فقط بل هو أيضا أحد العناصر الفعالة في تلك الأحداث ذاتها، فهو حامل لجملة من الأفكار والقيم الفكرية والاجتماعية والثقافية.
- تنوعت الشخصيات في الرواية بين شخصية رئيسية جسدها البطل إبراهيم، أما باقي الشخصيات كانت ثانوية ساعدت في تحريك الأحداث وتطورها
- وتعددت الشخصيات بتعدد المهام الموكلة إليها فشخصيات الرواية تحمل أسماء واقعية أي من الواقع الاجتماعي.
- لقد عبرت الرواية عن الوضع السياسي والاجتماعي الذي عاشته الجزائر في فترة من الحقبة الاستعمارية،و انعكاساته على المواطن الجزائري، وقد حاول الروائي عرض هذا الواقع من خلال رؤية أدبية وجمالية خاصة .وأخيرا يمكننا القول أن مالك بن نبي يعد أحد الأدباء المعاصرين القلائل في العالم الإسلامي الذين خصصوا حياتهم وجهودهم للنهوض بالأمة وقدموا عصارة أدبهم في محاولة فهم المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الجزائري، كما يعد بن نبي قدوة للمجتمع ولهذا جاء برواية "لبيك "ليضع بصمة في الأدب وفي فن الرواية ككل ومبدأها الوحيد هو التغيير وهذا الأخير يبدأ من إصلاح النفس أولا .وبهذه النتائج لا نزعم أننا قد أحطنا بجميع عناصر الدراسة، فرواية" لبيك – "في اعتقادنا – لا زالت أرضا بكرا، بحاجة إلى عملية بحث وتنقيب من زوايا عديدة، وهو ما ينتظر باحثين آخرين .

ملاحـــق

تلخيص رواية لبيك حج الفقراء:

تعد هذه الرواية أول الأعمال الأدبية في النثر الجزائري التي تحمل وعيا ناضجا فكريا وسياسيا وفلسفيا وإبداعا فنيا وقد جاءت هذه الرواية مباشرة بعدما أصدر مالك بن نبي كتابه الظاهرة القرآنية سنة 1946 فالظاهرة القرآنية يعد من أقوى الكتب التي خلفها مالك بن نبي فكرا وعلما وتحليلا، وهو المنطلق في البحث العلمي المفضي إلى الثقة بالمصدر العلوي المطلق للقرآن الكريم.[1]

كتبت رواية لبيك حج الفقراء باللغة الفرنسية سنة1947، عن دار النهضة في الجزائر ويعود الفضل في ظهور هذه الرواية للباحث الجزائري زيدان خوليف الذي ترجمها إلى العربية ونشرت لأول مرة سنة 2009 عن دار الفكر بدمشق وهي رواية قصيرة في حجمها بسيطة في نظمها.[2]

تدور أحداث هذه الرواية في مدينة عنابة بونة إبان الحقبة الاستعمارية وحيث تضع القارئ في الأجواء التي كان يعيشها طاغية على حياة العامة ذكر مالك بن نبي في مقدمة الرواية أنه كتبها في غرفة فندق بين سفيرتين متقاربتين في عنابة ويتحدث عن الرواية وكيف صنعها، بالرغم من انه كتبها في عاجلة، وذكر أن القضية واقعية خاصة الشخصيتين المحوريتين التي قامت حولها القصة وهما الفحام "إبراهيم "والطفل" هادي "اللذان عاشا في مدينة عنابة، أما الجانب الخيالي الوحيد فيتمثل في الصلة التي وضعها بين الأشخاص في المكان والزمان.[3]

وتضع القارئ آنذاك وحتى اليوم في الأجواء التي كان يعيشها الإنسان الجزائري البسيط في كل مدينة جزائرية كعنابة، حيث مؤثرات النمط الأوربي قد طغت على الجو

---

[1] مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء"، ترجمة زيدان خوليف، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 2009، ص12.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص09 .

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص24 .

العام .فالعم محمد والطفل هادي والسكير إبراهيم وزوجته كانوا يمثلون الشعب الجزائري بكل فئاته، فالعم محمد يمثل الأصالة المتجذرة في الأمة، ويمثل إبراهيم مع انحرافه عن الطريق السليم، الجيلَ الذي احتك وعايش المجتمع الأوربي في الجزائر، حيث كان في حيرة من أمره.

فما تعلمه صغيرًا وغاص في أعماقه لا يتناسب بما يطفو على السطح مع أحاسيسه العميقة، إنه الفراغ الذي يعانيه كل امرئ غير مقتنع بعقيدته ومقوماته الأخلاقية، لكنه استدرك الأمر وأدّى إبراهيم فريضة الحج مما يدل على أنه مهما حاد المؤمن عن سواء السبيل، فإن إخلاصه لابد أن يعيده إلى الهداية وإن طال زيغه، وظلت زهرة زوجة إبراهيم على ما عانته من ويلات وعربدات زوجِها الليلية تكِنُّ له كل الاحترام، وتتمنى له الخير وتعامله كأنه أخوها أو ابنها، ومسبحة أم إبراهيم كانت تمثل لها الرصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال، ويتوب إبراهيم السكير، والطفل هادي يتحدى رفاقه ويصعد إلى المركب ليحج هو الآخر بعزيمة أقوى من أن تقهر.

تتميز الرواية بسلاسة الأسلوب في سرد الأحداث وغناها بعنصر التشويق والتنكيت والطرافة، وكما جاء على لسان عمر مسقاوي، تلميذ مالك بن نبي، فإن قصة" لبيك حج الفقراء "قد رسمت عمق الروح الجزائرية وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية المنشدّة إلى منازل الوحي، ففي هذه الرواية ذات الأحداث البسيطة، استطاع مالك أن يقدم لنا وصفًا للمجتمع الجزائري ببساطته وأصالته ومحافظته على هويته وتراثه ودينه رغم كل المحاولات الفرنسية لطمس هذه الهوية وتحريف الشعب عن فطرته وإنسانيته.

فإبراهيم بطل القصة الذي قرر الاستجابة لنداء الفطرة والدين ونداء المجتمع وعاداته وتقاليده نداء الذكريات العائلية التي حفرت في نفسه قيم دينه وأمته ومجتمعه، وكان يمثل تلك العودة إلى الروحانية والنقاء بعد ابتعاده عن تلك القيم، وغوصه في قذارة الانحلال والمادية لا أعتقد أن مالكًا كان يبتغي من كتابة روايته تلك أن يبدع رواية أدبية وكفى، بل

كان يريد أن يؤكد على أن في هذا المجتمع قيمًا راسخة ليس من السهولة طمسها وأن هذه القيم هي التي ستحمي حضارتنا من الذوبان والاضمحلال.

فقوة الدين قوة المركز، تشد دائمًا أفراد المجتمع لتعيدهم نحو تلك القيم مهما ابتعدوا عنها، ومهما أثرت فيهم دعوات المادية الفجة،لم يكن مالك بن نبي منشغلاُ بمسألة الهوية بقدر انشغاله بالبحث عن أسباب الانحطاط والقابلية للاستعمار، ولكنه في هذه الرواية تطرّق بحسه السليم إلى مسألة الهوية، وكيف تكون حامية ومنجية للشخصية ومكوناتها، وبالرغم من أن تلك الرواية قد كُتبت قبل سنوات كثيرة أكثر من ستين عامًا 1947م.[1]

فقد جاءت من الروايات التأصيلية التي تعاملت مع المجتمع من منظور الاحترام وليس من منظور النقد والاحتقار فقد صورت لنا تلك البساطة والحميمية في التعامل بين أفراد المجتمع، وتطرقت لمسألة في غاية الأهمية وهي مسألة الانتماء للمجتمع، فالفرد الذي يخرج عن قيم المجتمع هو فرد منبوذ ومطرود من قِبل الشعب ولكنه سرعان ما يعود للاندماج ويلاقَى بالترحيب والسرور إذا عاد للالتزام بهذه القيم واحترامها "لبيك حج الفقراء " رواية بسيطة ولكنها مؤثرة، لا تخلو من التشويق[2].

رغم سلاسة أحداثها، من تلك القصص التي نسمعها عن رحمة الله بعباده وأنه يهدي من يشاء إلى طريقه المستقيم، ولكنها من الروايات التي تذكرنا بأن قيمنا وهُويَّتنا هي طريق نهضتنا، وأن عودتنا لتلك الأصول هي التي يجب أن ننطلق منها لرسم حياة جديدة وحضارة اتصالية نابعة من ذاتنا ومن أخلاقنا ومن خصائصنا تؤكد للعالم أن هناك حضارة قوية راسخة، تستطيع مقاومة تيار المادية الجارف الذي يريد الهيمنة على باقي الحضارات ومحوها من الوجود تتناول الرواية مختلف شرائح المجتمع بمختلف مستوياتهم وخلفياتهم

[1] ينظر: دار الفكر – آفاق معرفة متجددة https://darfikr.com/

[2] ينظر: نفس المصدر.

وجنسياتهم على الرغم من أن الجزائر هي بلد الحدث وتوثق أسلوب حياتهم في حقبة من الحقب بداية القرن العشرين الميلادي لتُبرز قصة أغلى رحلة في قلوب المسلمين وهي رحلة الحج في ذلك الزمان اختار مالك بن نبي" لبيك حج الفقراء " نموذجا ليؤثر غالبا في البسطاء من الناس والضعفاء إلى الله والفقراء إليه الذين يعدمون سبل الوصول إلى أداء فريضة الحج وتجعلهم يحنون كلما سمعوا نداء لبيك والرواية قصيرة معبرة وواقعية ومليئة بالمشاعر والأمل[1].

–لقد أراد مالك بن نبي من خلال هذه الرواية أن يبين لنا حقيقة المجتمع الجزائري أثناء الاستعمار الفرنسي الذي حاول تشويه صورته الجميلة والمس بعاداته ومحو مقوماته الشخصية والثقافية ووضح ذلك من خلال شخصية السكير إبراهيم الذي عايش المجتمع الأوروبي في الجزائر فرغم انحرافه،عن عقيدته ومقوماته الأخلاقية فإنه استدرك الأمر وأدى فريضة الحج، فكانت الرواية عبارة عن رسالة يوصلها للقارئ بأن الفرد الجزائري المسلم مهما تاه وضاع وعبث في حياته وانحرف عن طريق الصواب فإن لا محالة سيرجع في الأخير إلى الطريق الصحيح والمستقيم والمسلم فرواية لبيك حج الفقراء من الروايات الجزائرية التي حاولت أن تكون سجلا تاريخيا لحياة المسلم[2].

[1] ينظر: دار الفكر – آفاق معرفة متجددة https://darfikr.com/

[2] https://darfikr.com/ متجددة معرفة آفاق – الفكر ينظر: دار

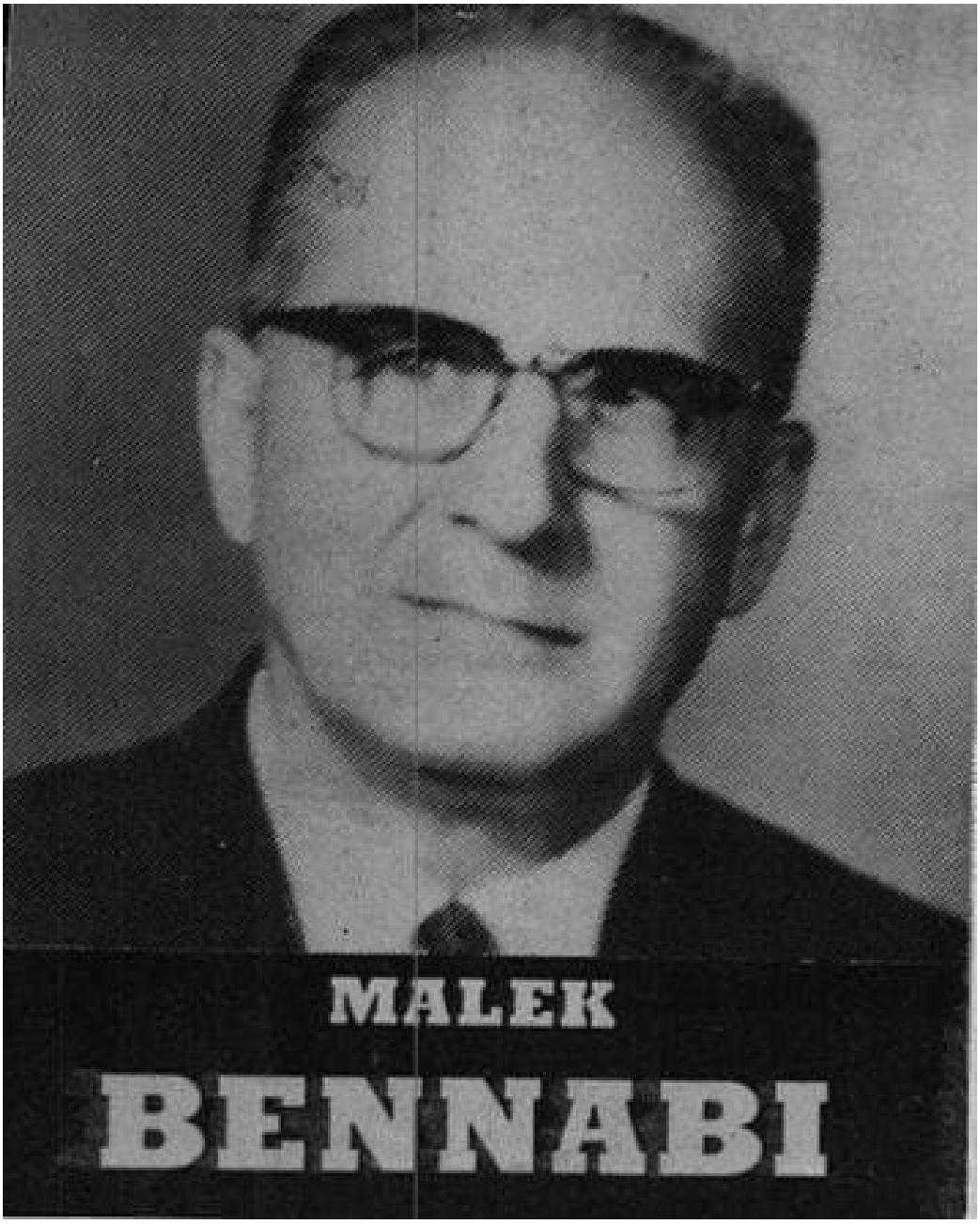
MALEK
BENNABI

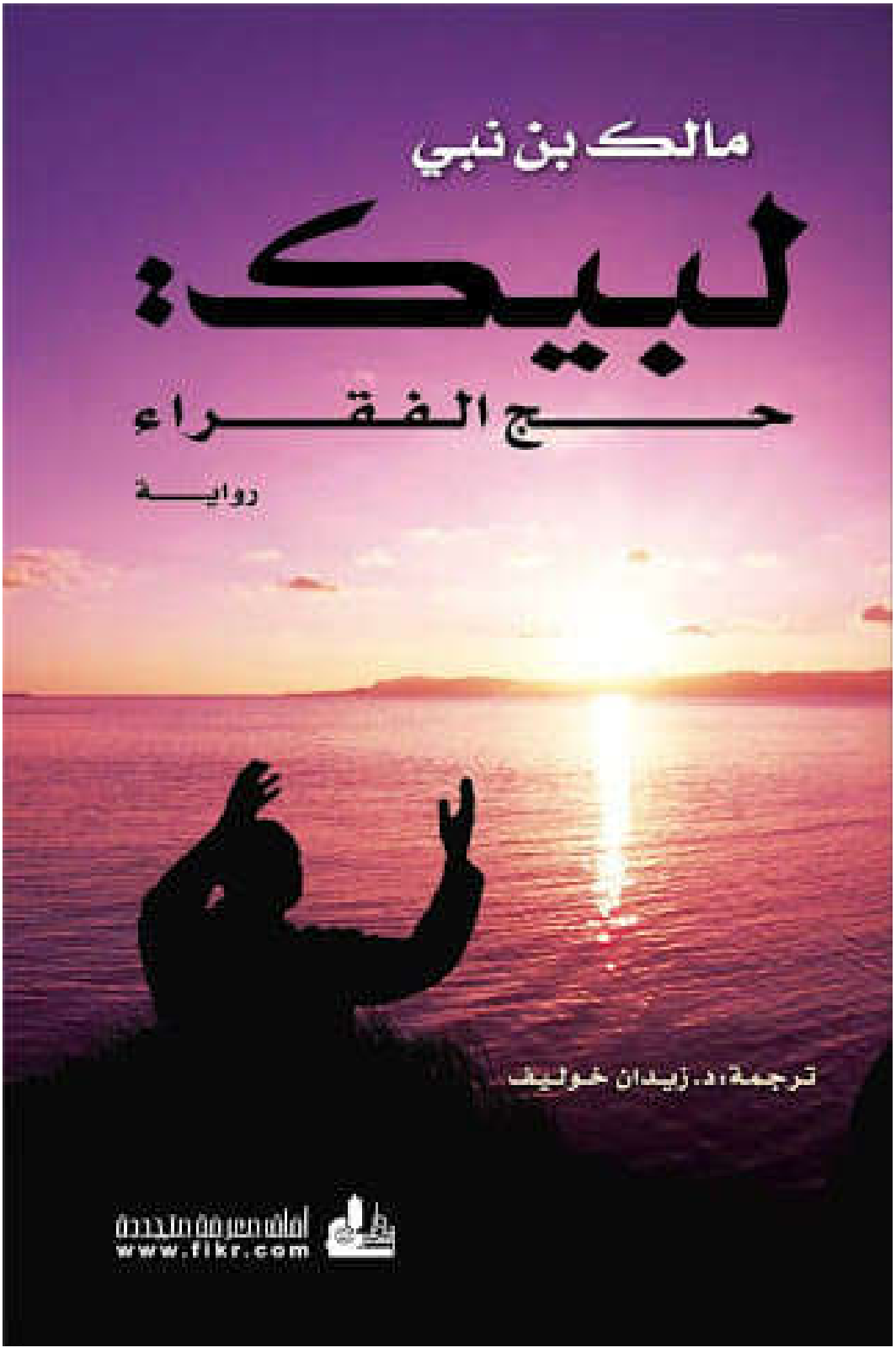
مالك بن نبي
لبيك:
حج الفقراء
رواية
ترجمة: د. زيدان خوليف
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم، برواية ورش.**

المصادر:

- **مالك بن نبي، لبيك "حج الفقراء" ترجمة زيدان خوليف،الطبعة الأولى، دار الفكر دمشق 2009.**
- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، الطبعة الثانية، ترجمة عبد الصابور شاهين ، دار الفكر دمشق 2002.
- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، الطبعة الثانية، دار الفكر دمشق 2000.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل المسقاوي، عبد الصابور شاهين ،الطبعة الرابعة دار الفكر، دمشق 1987 .
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، الطبعة الخامسة ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر ، دمشق 2000 .
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، الطبعة الثالثة، ترجمة عبد الصابور شاهين ، دار الفكر دمشق 1986.
- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، الطبعة الثانية، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر دمشق 2002 .

المراجع:

- آمنة تشيكو،مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي واولوندتونتي .المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989 .
- بان البنّا، الفواعل السردية (لدراسة في الرواية الإسلامية المعاصرة)،عالم الكتب الحديث إيربد الأردن الطبعة الأولى 2009.
- تعيسة جهاد عطا: في مشكلات السرد الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001 .
- جيراجينيت، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط2، 1997.
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن (الشخصية)، مركز الثقافي العربي بيروت لبنان الطبعة الثانية 2009 .

- حميد الحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الطبعة الثالثة، 2000.
- الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في رواية نجيب الكيهاني، عالم الكتب الحديث والتوزيع أربد الأردن الطبعة الأولى 2010 .
- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية(بحث في تقنيات السرد) ، المجلس الوطني لتقنيات الفنون والآداب الكويت (د،ط) 1998 .
- غاستون باشلار،جماليات المكان، ترجمة :غالب هلسا،المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، بيروت،لبنان، الطبعة الثانية، 1984.
- محمد بوعزة، تحليل النّص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2010.
- محمد عبد السلام الحفائري، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1984 .
- مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2004.
- نضال الشيمالي الرواية والتاريخ (بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن الطبعة الأولى، 2006 .

المجلات والمقالات:

- الدكتور نوار عبيدي، مقالات بالعربية، مالك بن نبي رائد الرواية الجزائرية.

المواقع الإلكترونية:

https://ar.m.wikipedia.org/k–

- دار الفكر – آفاق معرفة متجددةhttps://darfikr.com/
- نوار عبيدي : معالم رغبة التغيير والثورة في رواية لبيك حج الفقراء لمالك بن نبي https://binbadis.net/archives/574

فهرس الموضوعات

ملخص:

يتناول هذا البحث نظرة مالك بن نبي للتغيير، والتي ظهرت إرهاصاتها من خلال رواية لبيك حج الفقراء حيث وضع فيها تصوره الشمولي للنهضة التي يتصورها للشعب الجزائري. وذلك من خلال تخيله لحالة المجتمع الجزائري إبان الاستعمار واتخاذه شخصيات تعتبر نماذج لفئات عريضة من الشعب الجزائري تدل سيرورة أحداثها على ما يجب أن يقوم به الشعب الجزائري من خطوات لتحقيق النهضة المنشودة وذلك من خلال العودة إلى أصوله المشرفة النبيلة ونبذا الواقع المأساوي الذي يعيشه. تعتبر هذه الرواية المكتوبة بالفرنسية أصلا إرهاصا أوليا لنشأة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية خلافا لما شاء عن روايات أخرى.

الكلمات المفتاحية:

مالك بن نبي، أديب ،رواية لبيك حج الفقراء، التغير

Résumé:

Cette recherche traite de la vision du changement de Malik bin Nabi, qui a été révélée par le roman Lebek Hajj des Pauvres, dans lequel il a mis sa vision holistique de la renaissance envisagée par le peuple algérien. En imaginant la situation de la société algérienne pendant le colonialisme et en prenant des personnages qui représentent de larges couches du peuple algérien, le processus de leurs événements indique les mesures que le peuple algérien doit franchir pour parvenir à la renaissance désirée par le retour à ses nobles atouts honorables et à la réalité tragique qu'il vit. Ce roman, écrit en français, est à l'origine un souci primordial pour l'émergence du roman algérien, écrit en français, contrairement à d'autres romans.

Abstract:

This research deals with Malik bin Nabi's view of change, which was revealed through the novel Lebek Hajj of the Poor, where he put his holistic vision of the renaissance envisaged by the Algerian people. By imagining the situation of Algerian society during colonialism and taking figures who are models of broad sections of the Algerian people. The process of their events indicates the steps that the Algerian people must take to achieve the desired renaissance through the return to its noble honorable assets and the tragic reality it lives. This novel, written in French, is originally a primary concern for the emergence of the Algerian novel, written in French, contrary to other novels.